الملاحـــق [1]

(١) أضفنا هذه الملاحق ، للمقارنة بما مر فى بعض نقاط هذه الدراسة ، ولإلقاء مزيد من الضوء والفائدة .

obeikan.com

obeikan.com

الملحق الأول :

ابن جنى وعلم الأصوات (*)

علم الأصوات عند العلامة ابن جنى

(*) سقنا هذه الملاحق بتصرف لا يخل بالموضوع ، ليثق أبناء العربية والإسلام فى أنفسهم وفى أسلافهم ، الذين أسهموا بجهدهم فى تراث الإنسانية ، وليصنعوا صنيع أجدادهم ، وللمقارنة بين ماذكره ابن جنى وابن القيم فى القسم الأول من هذا الكتاب: (اللغويات) . .

obeikan.com

obeikan.com

ابن جنى

هو عبقرية فذة خالدة . . كانت له جوانب متعددة فى حقول علوم اللُّغة العربية ، ولم يفهمه كثير من الناس . . لا فى وقته ولا من تلاهم حتى فى عصرنا . . والله أعلم بما يكون بعد عصرنا .

وقد قدمت أبحاثًا من كتبه وخاصة كتابه : « الخصائص » والتى حققها الأستاذ الجليل المرحوم : الشيخ محمد على النجار ، والأستاذ الدكتور : إبراهيم محمد نجا رحمه الله ، وأستاذنا المرحوم الدكتور : عبد الله عيد العزازى ، وأساتذتى بالأزهر وجهونى لدراسته .

ومن البِرِّ بابن جنى أن تتوافر وتتضافر جهود العلماء المحدثين لإحياء وتحقيق ونشر آثار ابن جنى ، للاستفادة منها ، ووفاء بحق عظمائنا ؛ لأن نشر تراثنا العربى على أسس علمية منهجية ضرورة أساسية فى الدراسات العربية المعاصرة . .

وللأستاذ الدكتور محمد حسن باقلا دراسة قيمة فى علم الصوتيات عند ابن جنى ، نال بها درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف ، فأسدى بذلك جميلاً إلى دارسى العربية ، وبهر بها أساتذته فى انجلترا . . وأصبحت مرجعًا للدارسين . . ومنها استفدت كثيرًا . . فى هذا الملحق . . وآمل أن تنال الرسالة عناية الدارسين والباحثين فى تراث ابن جنى ففيها الخير الكثير ، والعلم الوفير .

كما إنى أرجو وآمل أن تزدهر اللغة العربية ، وتصبح لغة العالم الإسلامى كله ، والذى فاق المليار فى هذا العصر ، وإعادة الوحدة القوية ، والتعاون ، والتفاهم الروحى ، واللغوى ، والعزة والكرامة ، وفهم العلوم الإسلامية حق

الفهم . . وتذوق بلاغة وفصاحة القرآن الكريم وإعجازه وعلوم السنة النبوية ، وفى ذلك إعزاز للمسلمين ، وجمع لشملهم ، وتعاون على كل ما فيه نفعهم وخيرهم فى الدارين ، تحقيقًا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ .

* *

● **تعريف بابن جنى :**

هو : أبو الفتح عثمان بن جنى ، وله من الأبناء ثلاثة ، هم : على ، وعلاء ، وعالى ، وقد تتلمذوا على والدهم .

نسبه : قيل : إن أباه كان روميًا يونانيًا ، من أقاليم تركيا ، أو آسيا الصغرى .

ولادته : ولد ابن جنى بالموصل ، فى العقد الثانى من القرن الرابع الهجرى تقريبًا ، وهو عصر الازدهار الفكرى والعلمى . وتوفى فى الثامن والعشرين من صفر ٣٩٢ هـ .

منزلته العلمية : يعتبر ابن جنى مدرسة متميزة فى علوم العربية ، وفلسفتها . وعلم اللهجات ، وعلم الدلالة .

* ويقول ابن خلكان ، فى وفيات الأعيان : أبو الفتح عثمان بن جنى النحوى المشهور ، كان إمامًا فى علم العربية .

* ويقول آدم ميتز ، فى مجلة المجمع العلمى العربى م/ ٣٠ : إن كتب علم الاشتقاق ، وفقه اللغة ، ومعرفة أسرار اللُّغة من مبتكراته .

* وفى نفس المرجع يقول دكتور محمد أسعد طلس : أصبح ابن جنى ثقة وحجة فى اللغة والأدب ، وأوتى من ذلك حظًا عظيمًا ، لا يقل عن حظ أكبر الأئمة ، كأبى عمرو بن العلاء ، والخليل ، وسيبويه وغيرهم .

* وتصدر للإقراء فى جامع الموصل فى حداثة سنه ، دلالة على نبوغه .

* ومن شيوخه ، فى اللغة وعلومها ، والأدب ، والقراءات الأخفش ، وابن وكيع ، وأبو بكر الذهبى ، وأبو بكر بن الحجاج ، وأبو الفرج الأصفهانى ، وابن مقسم ، وأهم شيوخه على الإطلاق أبو على الفارسى ، الذى لازمه ابن جنى قرابة أربعين عامًا ، ومات سنة ٣٧٧ هـ ، فخلفه ابن جنى عميد اللغة العربية وآدابها فى بغداد

* ومن تلاميذه : أبناؤه ، والشريف الرضى ، وعبد السلام البصرى ، وعمر بن ثابت ، وأبو الحسن الشمسى ، وثابت بن محمد الجرجانى ، وابن شاهويه ، والأمير عبد الله بن سنان الخفاجى ، وابن بشران ، وأبو عبد الله ابن أحمد بن نصر .

* مؤلفاته : تربو مؤلفاته على الخمسين ، منها : التصريف الملوكى ، والمقتضب ، والخصائص ، والمذكر والمؤنث ، والمهموز ، والمقصور والممدود ، وكتاب « الشواذ » ، و« المحتسب فى القراءات الشاذة » ، و« المنصف فى شرح التصريف » للمازنى ، و« سر صناعة الإعراب » ، و« علل التثنية » ، و« اللمع فى النحو » ، و« العروض والقوافى » ، و« عقود اللمع » ، و« شرح بعض الدواوين الشعرية » لمعاصريه ، و« سرّ صناعة الإعراب » (أو « سرّ الصناعة ») . . . إلخ .

ومن المفيد أن نقف قليلاً عند كتابه « سرّ الصناعة » فى مقدمته ؛ لمعرفة منهجه والجوانب التى تضمنها فى دراسته ، وأسلوبه فى التأليف ؛ لتزداد معرفة به وإعجابًا للعبقرية الفذة ، التى يجب أن نتناول آثارها بالبحث والدراسة والتحقيق والمقارنة فى ضوء الدراسات الحديثة المناظرة .

يقول فى المقدمة : رسمت أن أضع كتابًا يشتمل على جميع أحكام حروف المعجم وأحوال كل حرف منها ، وكيف مواقعه فى كلام العرب ، وأن أتقصى القول فى ذلك وأشبعه وأوكده . فاتبعتُ ما رسمته وانتهيتُ إلى ما مثلته .

وأنا - بإذن الله تعالى ومعونته وطوله ومشيئته - أبلغ من ذلك فوق قدر

الكفاية ، وأحرز فيه - بتوفيق الله - قصب الغاية ، وأجتنب مع ذلك الإسهاب والإطالة إلا فيما تضمن نكتًا أو أثار دفينًا .

وأتبع كل حرف منها مما رويته عن حذاق أصحابنا وجلّتهم ، وحذوته على مقاييسهم .

وأذكر أحوال هذه الحروف فى مخارجها ومدارجها ، وإنقسام أصنافها ، وأحكام مجهورها ومهموسها ، وشديدها ورخوها ، وصحيحها ومعتلها ، ومنفتحها ومطبقها ، وساكنها ، ومتحرّكها ، ومضغوطها ، ومهتوتها ، ومنحرفها ، ومشربها ، ومكررها ، ومستعليها ومنخفضها . . . إلى غير ذلك من أحكامها ، وأجناسها .

وأذكر فرق ما بين الحرف والحركة ، وأين محلّ الحركة من الحرف : هل هى قبله ؟! أو معه أو بعده ؟

وأذكر أيضًا الحروف الّتى هى فروع مستحسنة ، والحروف التى هى فروع مستقبحة ، والحركات التى هى فروع متولّدة عن الحركات كتفرع الحروف عن الحروف .

وأذكر ما كان من الحروف فى حال سكونه له مخرج ما فإذا تحرك أقلقته الحركة وأزالته عن محله فى حال سكونه .

وأذكر أيضًا أحوال هذه الحروف فى أشكالها والغرض من وضع واضعها ، وكيف ألفاظها ما دامت أصواتًا مقطعة ، ثم كيف ألفاظها ، إذا صارت أسماء معربة ، وما الذى يتوالى فيه إعلالان بعد نقله ممّا يبقى بعد ذلك من الصحة على قديم حاله ، وما يمكن تركبه ومجاورته من هذه وما لا يمكن ذلك فيه ، وما يحسن وما يقبح فيه . ما ذكرناه .

ثمّ أفرد فيما بعد لكل حرف منها بابًا اغترف فيه ذكر أحواله وتصرفه فى

الكلام : من أصليته وزيادته ، وصحته ، وعلته ، وقلبه إلى غيره ، وقلب غيره إليه .

وليس غرضنا فى هذا الكتاب ذكر هذه الحروف مؤلفة ؛ لأن ذلك كان يقود إلى استيعاب جميع اللغة وهذا مما يطول جدًا ، وليس عليه عقدنا هذا الكتاب . . وإنما الغرض فيه ذكر أحوال الحروف مفردة أو منتزعة من أبنية الكلم التى هى مصوغة فيها ؛ لما يخصها من القول فى أنفسها . وأقروا ذلك شيئًا فشيئًا على تأليف حروف المعجم دون مدارج الحروف .

هذا ما جاء فى مقدمة كتابه « سر الصناعة » ، وقد أشار فيها إلى مسائل شتى .

* *

* بحثت فى ثنايا الكتاب : فى النحو والصرف ، والأدب ، كما عالج الجوانب الصوتية ، وما يتصل بها ، وقد استخلص الأستاذ الدكتور محمد حسن باكلا ، من هذا الجانب الصوتى رسالته القيمة : (ابن جنى عالم الصوتيات) ، ونال بها الدكتوراه بدرجة مرتبة الشرف من انجلترا سنة ١٤٠٢ هـ ، ومن مقدمته استفدنا كثيرًا من المعلومات . . وقد طلبته منه فى السعودية ، فحمله - مشكورًا - إلى باب دارى فى كندا ، فكانت فرحتى به عظيمة ، وما زالت . . ؛ لأنه سدّ جانبًا كبيرًا من قصور أبناء العربية اليوم ، من عدم قيامهم بواجب نشر وتحقيق روائع تراثنا الخالد ، لأمثال الأفذاذ من العباقرة ، أمثال ابن جنى رحمه الله تعالى ، وإطلاع غيرنا على ما عندنا من كنوز .

وأستخلص من سر الصناعة : المعلومات الصوتية ، وقارنها بالمعلومات الصوتية فى كتبه الأخرى ، ثم قام بمقارنة كل ذلك بكتب علماء العرب المسلمين الأقدمين والمحدثين ، وأيضًا بالدراسات الغربية والشرقية الحديثة . . موثقًا باللوحات الفوتوغرافية ، وبأحدث التقنية المعاصرة ، ومعبرًا بالعربية والإنجليزية . . فجاءت رسالته مفخرة تشير إلى روعة تراثنا الخالد ، وعبقرية

علمائنا ، وترفع عنا ملامة إهمالنا لتراثنا ، واهتمام الأجانب به . وقد نوهت بفضله فى خطبة جمعة - فى مناسبة الإبداع العربى والإسلامى - فجزى الله سبحانه الدكتور باكلا عن الإسلام والمسلمين ، والعربية ، وعلمائها وأبنائها خير الجزاء .

* *

* فى سر الصناعة عالج الأصوات العربية من جوانب ثلاثة من حيث مخارجها ومدارجها ، وبحسب نوعياتها ، ثم وصفها بحسب الملامح الصوتية ، أو من حيث الصفات والأجناس .

ودراسة ابن جنى - إذن - كدراسة الخليل وسيبويه ، مبنية على أساس من التحليل الرياضى والمنطقى ، بل زاد ابن جنى فيما ذهب إليه لاعتبارات وأبعاد باطنية وضمنية ، لم يلتفت إليها معاصروه ، ومن سبقوه .

فقد ذكر أن الحرف (أو الفونيم ، أو الوحدة الصوتية) وحدة تتألف من صفات وملامح صوتية ، بعضها صفات مشتركة مع الحروف الأخرى ، وبعضها صفات مميّزة ، أى تميّز الحرف عن الحرف .

وابن جنى أيضًا سبق الدراسات الحديثة ، إلى فكرة (الفونيم) أو الوحدة الصوتية ، و(الألفون) أو عضو الوحدة الصوتية ، كما سبقهم إلى نظرية (المورفونيم) .

وفرق بين الحروف الصوامت والصوائت ، وما يتعلق بتركيبها وتآلفها أو تنافرها وتباعدها ، وهو ما يسمى حديثًا بـ « الفونوتاكتكس » ، أو دراسة تتابع الوحدات الصوتية ، كما عالج الظواهر الصوتية الصرفية ، كالمماثلة ، والمخالفة والحذف ، والقلب المكانى . . إلخ ، مما يطلق عليه حديثًا - فى علم اللسانيات - اسم « المورفونولوچيا » .

كما ذكر ابن جنى فى كتابه « سر الصناعة » نظريات تنطبق على اللغة الإنسانية عامة : فيعرف « الصوت » بأنه :

« عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً ، حتى يعرض له فى الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفًا ، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها » .

وله طريقة عملية - شاعت بعدئذ فى كتب المتأخرين - كمنهج تجريبى ، وطريقة عملية فى وصف أصوات الحروف ، ومخارجها ، مما يسمى حديثًا بـ « الفون » ، أو العضو الرئيسى « للفونيم » ، يقول :

« وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتى به صامتًا لا متحركًا ؛ لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره ، وتجذبه إلى جهة الحرف التى هى بعضه ، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله لأن الساكن لا يمكن الابتداء به ، فتقول : إِكْ ، إِقْ ، إِجْ . . . وكذلك سائر الحروف » .

ويشبه أعضاء النطق عند الإنسان بآلات الموسيقى ، من حيث تقطيع الأصوات ، وتغاير جرسها ، فيختلف النغم ، يقول رحمه الله تعالى :

« ولأجل ما ذكرنا من اختلاف الأجراس فى حروف المعجم ؛ باختلاف مقاطعها ، التى هى أسباب تباين أصدائها ما شبه بعضهم الحلق والفم بالناى :

فإن الصوت يخرج فيه مستطيلاً أملس ساذجًا ، كما يجرى الصوت فى الألف غفلاً بغير صنعة ، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناى المنسوقة ، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات ، وسمع لكلّ حرف منها صوت لا يُشبه صاحبَه . فكذلك إذا قطع الصوت فى الحلق والفم بإعتمادٍ على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة .

ونظير ذلك وتر العود : فإنّ الضارب إذا ضربه وهو مرسل سمعتَ له صوتًا ، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه أدّى صوتًا آخر ، فإن أدناها قليلاً سمعتَ غير الاثنين . ثمّ كذلك كلّما أدنى أصبعه من أول الوتر تشكّلت له أصداء مختلفة ، إلا أنّ الصوت الذى يؤديه الوتر غافلاً غير محصور تجده بالإضافة إلى ما أدّاه وهو مضغوط محصور أملس مهتزًا .

ويختلف ذلك بقدر قوة الوتر وصلابته وضعفه ورخاوته : فالوتر فى هذا التمثيل كالحلق ، والخفقة بالمضراب عليه كأوّل الصوت من أقصى الحلق ، وجريان الصوت فيه غفلاً غير محصور كجريان الصوت فى الألف الساكنة وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع ، كالذى يعرض للصوت فى مخارج الحروف من المقاطع ، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا .

وإنّما أردنا بهذا التمثيل الإصابة والتقريب ، وإن لم يكن هذا الفن مما لنا ولا لهذا الكتاب به تعلق . ولكنّ هذا القبيل من هذا العلم ؛ أعنى « علم الأصوات والحروف » له تعلق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صنعة الأصوات والنغم .

وأخيرًا نلاحظ أن « مصطلحات ابن جنى الفنية » هو ابن بجدتها ، وهو الذى أشار إليها محددًا ومعرفًا ، وإن أخذت عند المحدثين أسماء أجنبية ، مثل :

قوله : « علم الأصوات والحروف » ، يقابل : « الفوناتيكس » ، أو « الفوناتيك » فى علم الصوتيات ، و« الفونولوچيا » ، أو « الفونيمكس » لعلم الحروف ، و« الفونيم للوحدة الصوتية » ، و« المورفونولوچيا » للظواهر الصرفية الصوتية . . إلخ .

وأخيرًا يطمئن ابن جنى إلى ما هداه إليه تفكيره . . ويفتح المجال لمن يأتى بجديد ، حيث يقول : (وما علمت أن أحدًا خاض فى هذا الفن هذا الخوض ، ولا أشبعه هذا الإشباع .

ومن وجد قولاً قاله . . والله يعين على الصواب بقدرته) .

* * *

الملحق الثانى

(علم الصوتيات)

من العلوم الكونية فى التراث الإسلامى (*)

(*) للأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا ، بكلية علوم القاهرة ، نشرته مجلة الأزهر . . وشكر الله للدكتور فى ثباته على التنقيب عن علم العلماء العرب والمسلمين الأقدمين ، ليرد الثقة إلى المهزومين من بنى جلدتنا .

obeikan.com

obeikan.com

أشار الأقدمون من علمائنا إلى الأصوات اللغوية بما تيسر لهم من معارف حولها ، بما سمعوه من غيرهم ، أو لا حظوه فى الأصوات الموسيقية ، أو مارسوه ولا حظوه عند نطق بعض الحروف ، أو استخرجوه بوسائل بدائية . . جاءت قريبة من الصواب ، أو أصابته أحيانًا . ولهم العذر فى ذلك ، لانعدام الوسائل التقنية أو ندرتها . . ولكن بحسهم الكبير ، وتفكيرهم العميق وملاحظاتهم الدقيقة جعلت قولهم وحكمهم صحيحًا أو قريبًا من الصحيح .

وفى هذا المقال الذى نقدمه تجد التقنية الحديثة ، مع صواب واجتهاد علمائنا القدامى . . دبجته براعة أستاذ فاضل عنى طويلاً بمثل هذه الأبحاث التى تشيد بفضل علمائنا وتطلعنا على الجديد المفيد فى كل ما كُتِب ويكتب ويتتبع المقتبسين أو الذين سطوا على تراثنا ونسبوه لأنفسهم ، فتخلوا عن سمات العلماء والباحثين فى الأمانة والاقتباس والنقل .

يقول الدكتور - أحمد فؤاد باشا :

علم الصوتيات من العلوم الكونية التى شهدت تطورًا هائلاً فى العصر الحاضر ، وتدين بنشأتها وإرساء أصولها المنهجية والمعرفية السليمة لعلماء المسلمين الأوائل فى عصر الحضارة الإسلامية الزاهرة .

ويعنى علم الصوتيات بدراسة الصوت والظواهر الصوتية بمختلف تطبيقاتها فى نواح عديدة من حياة الإنسان ، تشمل : مجالات الطب والهندسة والاتصالات ، والحاسبات والفضاء ، والموسيقى والبحث العلمى وغيرها .

وإن تأكيد الدور الإسلامى فى تأسيس تلك العلوم الحضارية بالبرهان القاطع والحجة الواضحة ، من شأنه أن يسهم فى تصحيح تاريخ العلم والحضارة بعد أن عبث به العابثون . وأن يعيد لشباب الأمة الإسلامية الثقة فى نفسه ، وفى عقيدته ، بعد أن حاولت قوى كثيرة طمس معالمها وإخماد جذوتها وإطفاء نورها . لقد أدى تجاهل مآثر أسلافنا فى مختلف مجالات المعرفة الإنسانية إلى فصل المسلمين المعاصرين عن ماضيهم العريق ، وتعميتهم عن تراثهم الثمين ، وتعميق الشعور لديهم بالنقص والعجز وعدم القدرة على

استيعاب مقومات التقدم والرقى ، فلا يكاد الدارس فى أى تخصص علمى ، يجد أثرًا لعالم مسلم ؛ لأن غالبية الكتب التى يدرسها تزدان فقط بأسماء علماء الغرب القدامى والمحدثين ، من أمثال : أرسطو وأرشميدس وفيثاغورث ونيوتن وأينشتين وغيرهم ، وتغفل - عن قصد أو جهل - عشرة قرون أو تزيد ، حمل فيها المسلمون وحدهم لواء المعرفة فى كل مجال ، وأرسوا قواعد النهضة العلمية المعاصرة .

* *

● علم الصوتيات فى التراث الإسلامى :

لم نعرف شيئًا ذا قيمة علمية عن اهتمام أهل الحضارات القديمة بدراسة ظاهرة الصوت ، اللهم إلا فيما يتعلق ببعض أنواع الغناء والعزف (الموسيقى)، ومن ثم فإننا لا نستطيع أن نبدأ الحديث عن نظرية الصوت والظواهر الصوتية إلا من حيث بدأ علماء الحضارة الإسلامية فى تناولها بالبحث والتحليل على أسس منهجية سليمة .

فقد أجمعوا من حيث المبدأ على أن هناك شيئين ضروريين لانبعاث الصوت وانتشاره :

أما الشىء الأول : فلا بد من وجود جسم يهتز لإحداث موجات الصوت التضاغطية ، على نحو ما نجد فى وتر العود أو الكمان ، أو فى الأوتار الصوتية عند الإنسان .

وأما الشىء الثانى : فلا بد من وجود وسط مادى ، كالهواء أو الماء ، تنتقل خلاله هذه الموجات الصوتية إلى أن تصل إلى الأذن ويحدث الإحساس بالسمع . فوتر العود ، مثلاً ، لا نسمع له صوتًا إذا اهتز فى الفراغ ؛ لأن التموجات الصوتية لا تجد الوسط الذى تنتقل خلاله إلينا . ونحن نعلم اليوم أن القمر ليس له غلاف هوائى مثل الأرض ، ولهذا فإن رواد الفضاء على سطحه يتبادلون الحديث بواسطة الراديو (اللاسلكى) ، حيث يمكن للضوء وموجات الراديو - وليس موجات لصوت - أن تنتقل خلال الفراغ .

والتجربة البسيطة التى يجريها الطلاب فى المعمل للتأكد من صحة هذه الحقيقة العلمية يضعون فيها ناقوسًا زجاجيًا فوق ساعة « منبه » به جرس يدق ، ويستخدمون مضخة هوائية لتفريغ ما يمكن إفراغه من هواء الناقوس ، ثم يسمحون بدخول الهواء تحت الناقوس مرة أخرى ، فيلاحظون أن صوت دقات الجرس يخفت رويدًا رويدًا أثناء تفريغ الناقوس من الهواء ، ثم يشتد الصوت عندما يدخل الهواء فى الناقوس .

* *

* كذلك أجمع علماء المسلمين على تفسير جيد لحدوث « الصدى » نتيجة لانعكاس الموجات الصوتية عندما يعترض مسارها عائق ، فتحدث فى ارتدادها رجعًا يشبه الصوت الأصلى .

* ومن أوضح النصوص التى وردت فى تراثنا الإسلامى عن طبيعة الصوت والصدى ما ذكره **بهمنيار بن المرزبان** فى كتابه « تحصيل بهمنيار » حيث قال :

« **والصوت** أمر يحدث من تموج الجسم السيال الرطب كالهواء والماء بين جسمين متصاكين متقاومين .

وأما الصدى فإنه يحدث من تموج يوجبه هذا التموج ، فإن هذا التموج إذا قاومه شىء من الأشياء كجبل أو جدار حتى دفعه لزم أن ينضغط أيضًا بين هذا التموج المتوجه إلى قرع الحائط أو الجبل وبين ما يقرعه هواء آخر يرده ذلك ويصرفه إلى خلف بانضغاطه ، ويكون شكله شكل الأول وعلى هيئته . . . ويجوز أن يكون لكل صوت صدى ولكن لا يسمع ، كما أن لكل ضوء عكسًا . . والسبب فى ألا يسمع الصدى فى البيوت أن المسافة إذا كانت قريبة من المصدر وعاكس الصوت سمعًا معًا فى زمان واحد أو قريب من واحد » [1] .

---

(١) د . أحمد فؤاد باشا ، التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٤ ص ٨٩

* ويؤكد الجلدكى فى كتابه « أسرار الميزان » أن (التموج الذى يحدث الصوت ليس المراد منه حركة انتقالية من ماء أو هواء واحد بعينه ، بل هو أمر يحدث بصدم بعد صدم ، وسكون بعد سكون . . . والصدى يحدث عن انعكاس الهواء المتموج (بنفس شكله وهيئته) من مصادمة عال كجبل أو حائط ، ويجوز ألا يقع الشعور بالانعكاس لقرب المسافة فلا يحس بتفاوت زمانى الصوت وعكسه . . . » (١) .

ويستدل من هذا النص على أن الطاقة الصوتية - لا الوسط - هى التى تنتقل أثناء انتشار الصوت ، وهو ما سنعرض لشرحه بعد قليل فى ضوء التفسير الحديث لحركة الموجات التضاغطية .

* وللصوت ، عند **الفخر الرازى** ، سببان أحدهما قريب و لآخر بعيد .

فالسبب القريب تموج الهواء ، وهو حالة شبيهة بتموج الماء تحدث بالتداول : من صدم بعد صدم مع سكون بعد سكون .

وأما السبب البعيد فهو من وجهين : إمساس عنيف وهو لقرع أو تفريق عنيف وهو القلع . « وإنما اعتبرنا العنيف (وحده) لأنك لو قرعت جسمًا لينًا كالصوف بقرع لين جدًا لم تحس صوتًا ، ولو شققت شيئًا (شقًا) يسيرًا ، وكان الشىء المشقوق لا صلابة فيه ، لم يكن للقلع صوت . ثم إن تموج الهواء لازم من كلا السببين ؛ لأن القارع للهواء يحوج (الهواء) إلى أن ينقلب من المسافة التى يسلكها القارع إلى جنبتيها بعنف شديد ، وكذلك القالع .

ثم (إننا نجد) فى الأمرين جميعًا (أنه) يلزم للمتباعد من الهواء أن ينقاد للشكل والموج الواقعين هناك ، وإن كان القرعى أشد انبساطًا من القلعى » (٢) .

---

(١) قدرى حافظ طوقان . العلوم عند العرب ، سلسلة الألف كتاب - مكتبة مصر بالفجالة (بدون تاريخ) ص ٣٨ .

(٢) عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٧، ص ٢٤١ .

* إن تأمل هذه النصوص التراثية يدل دلالة واضحة على إحاطة علماء المسلمين بالحقائق الأساسية فى نظرية الصوت ، وخاصة ما يتعلق بشروط إحداثه وطبيعة انتشاره وانعكاسه . بل إنهم فطنوا كذلك إلى تأثير الحركة الصوتية فى الهواء الذى (لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها ، فإذا صدم جسم جسمًا آخر انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج إلى جميع الجهات ، وحدث من حركته شكل كروى واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجّاج (صانع الزجاج) فيها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل) [1] . ولعل فى هذا القول ما يؤكد سبق علماء المسلمين إلى تقرير ما أثبته العلم التجريبى حديثًا من أن الموجات الصوتية المتنقلة فى الوسط المادى تفقد قدرًا من طاقتها عند اصطدامها بالأجسام تبعًا لنوعيتها وطبيعتها .

* *

● **حركة الموجات التضاغطية :**

أما عن كيفية انتقال موجات الصوت الطولية التضاغطية خلال الهواء (أو أى وسط مادى) فإننا نعلم الآن أن ذلك يتم عبر سلسلة من التضاغطات (تكاثفات) والتخلخلات التى تحدث لوسط الانتقال ، أى أن الطاقة الصوتية ، لا الوسط ، هى التى تنتقل عن طريق اهتزاز جسيمات الوسط فى اتجاه انتشار التموجات . فعندما يهتز وتر العود ، مثلاً ، فإن حركته إلى الأمام تعمل على ضغط الهواء الملاصق له وانطلاق موجة تضاغطية فى الهواء ، وفى لحظة تالية يتحرك وتر العود إلى الخلف تاركًا وراءه منطقة تخلخل ذات ضغط منخفض تتباعد فيه جزئيات الهواء عن بعضها . وبتكرار هذه العملية مرات

---

(١) عن قدرى حافظ طوقان ، مرجع سابق ، وقد وجدنا نفس النص منسوبًا لإخوان الصفافى مؤلف الدكتور عمر فروخ : إخوان الصفا . درس - عرض - تحليل ، دار الكتاب العربى بيروت ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م ص ٧٣

كثيرة تتحرك مناطق التضاغط والتخلخل ذهابًا وإيابًا بنفس الطريقة التى يهتز بها وتر العود وينشأ ما نسميه بموجات الصوت الطولية التضاغطية .

* *

* ومن الجدير بالذكر أن علماء المسلمين قد تعرضوا للحديث عن عملية التكاثف والتخلخل فيما يتعلق بإشكاليات المكان والمادة والخلاء ، فقال بعضهم بأن التخلخل هو تباعد الأجزاء تباعدًا يترك ما بينها خالياً ، والتكاثف رجوع من الأجواء إلى ملء الخلاء المتخلخل . وذكر ابن سينا أن (هناك نحوًا آخر من التكاثف والتخلخل لا يكون سببه اجتماع الأجزاء المتفرقة ، بل سببه أن المادة نفسها تقبل حجمًا أصغر تارة وحجمًا أكبر تارة أخرى ، وكلاهما أمران عارضان للجسم) [1] ، لكن ربط هذا الكلام بحركة التموجات الصوتية فى الهواء لم يكن واردًا فى تلك المرحلة المبكرة جدًا من التناول العلمى لظاهرة الصوت ، وإن كان من المهم أن يعول عليه عند التأريخ لحركة الموجات التضاغطية فى العلم الطبيعى بوجه عام ، وذلك للوقوف على حقيقة الدور الهام الذى أسهم به أسلافنا فى تحديد وصياغة واستخدام المفاهيم والمصطلحات العلمية .

* *

● سرعة الصوت فى التراث الإسلامى :

يكتسب الحديث عن سرعة الصوت فى كتب التراث الإسلامى أهمية خاصة ، فى الإطار المنهجى لتقييم المعرفة العلمية تاريخيًا . ومن يستعرض هذا الموضوع فى مختلف النصوص التراثية سوف يلاحظ أن البحث فى سرعة الصوت يأتى فى أغلب الأحيان مقارنًا بسرعة الضوء ، فقد ذكر البيرونى ، على سبيل المثال ، أن سرعة النور أعظم كثيرًا من سرعة الصوت [2] وتحدث

---

(١) راجع فى ذلك : د . محمد عاطف العراقى - « الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا » - دار المعارف ١٩٨٣ ، ص ١١٢ وما بعدها .

(٢) عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، مرجع سابق ، ص ٤١٨

ابن سينا عن تأخر سماع صوت الرعد عن رؤية وميض البرق ، لكنه علَّل ذلك بأن البرق يُرى فى الآن (أى فى نفس لحظة حدوثه) بلا زمان ، وأما السمع فيحتاج فيه إلى تموج الهواء أو ما يقوم مقامه من أجسام صلبة أو سائلة ، وذلك يحدث فى زمان :

فإذا اتفق أن قرع إنسان من بعد جسمًا على جسم فإنك ترى القرع قبل أن تسمع الصوت ، لأن الإبصار ، فيما يرى ابن سينا ، ليس له زمان والاستماع يحتاج إلى (آن) ، وإذا كان ابن سينا قد جانبه الصواب فى تعليل الشق الخاص بالإبصار ، فإن الحسن ابن الهيثم استطاع بالتجربة العملية أن يبطل نظرية السرعة الآنية للضوء التى قال بها ابن سينا ، وأن يثبت أن للضوء زمانًا وسرعة معينة كما أن للصوت زمانًا وسرعة معينة ، إلا أن زمان حركة الضوء أسرع بحيث لا يحس به أصلاً [١] .

ومما يؤسف له أن أحدًا فى ذلك الوقت لم يفد من هذه الأفكار الهامة فى تقدير سرعة الصوت كميًا [٢] ، وتأخرت هذه الخطوة الهامة والبسيطة إلى القرن السابع عشر عندما تمكن ميرسين وجاسندى Mersenne And Gassendi من إجراء أول تجربة عملية لتعيين سرعة الصوت فى الهواء عن طريق قياس الفترة الزمنية التى تنقضى بين لحظة رؤية النار المنبعثة من فوهة مدفع (أو بندقية) عند إطلاق قذيفة منه على مسافة بعيدة محددة وبين لحظة سماع صوت القذيفة .

وظلت فكرة الربط بين ضوء وصوت صادرين من مصدر واحد فى نفس اللحظة أساسًا لتجارب عديدة ، أجريت بعد ذلك إلى أن تمكن إسكلاجنون Esclagnon . E خلال الحرب العالمية الأولى فى عامى ١٩١٧ ، و١٩١٨م ، من تقدير سرعة الصوت فى الهواء الجاف عند درجة الصفر

---

(١) كمال الدين الفارسى ، كتاب « تنقيح المناظر لذوى الأبصار والبصائر » ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٢) نرى سببًا لذلك غير عدم توافر أجهزة دقيقة لقياس الزمن بالثوانى فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخ التقنية عمومًا وأجهزة القياس الدقيق بخاصة .

المئوى بدقة عالية تقترب من القيمة النظرية لسرعة الموجات التضاغطية وهى ١ر ٣٣٠ مترًا فى الثانية [١] .

* *

● أراء متقدمة للمسلمين فى علم الصوتيات وتطبيقاته :

* يتضح مما سبق أن طبيعة الصوت وانتقال الموجات الصوتية وإنعكاسها كانت معروفة تمامًا فى كتب التراث العلمى الإسلامى بنفس المفاهيم التى نعرفها عنها اليوم ، وقد أفاد علماء الحضارة الإسلامية من نظريتهم فى علم الصوتيات ، وسجلوا آراء كثيرة متقدمة فى مجالات متنوعة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - تقديم تفسير مناسب لآلية بعض مصادر الصوت ، على نحو ما ورد عن **إخوان الصفا** فى صوت الرعد : فقد زعموا الصواب فى أن « البخار الرطب » يتمدد فى طبقة ما من الهواء فيضيق به مكانه فيحاول الانفلات فيمر فى الهواء كله ويحدث صوتًا هو الرعد [٢] .

وهذا التصور لا يختلف كثيرًا عن التفسير المعاصر الذى يقضى بأن صوت الرعد ينجم عن تسخين شديد مفاجىء يحدثه البرق فى منطقة ابعاثه ، حيث يتمدد الهواء فجأة ويزداد حجمه ويتمزق محدثًا تفريغًا جزئيًا فى المكان ، أى تخلخلاً ، ولذا سرعان ما يندفع الهواء من كل صوب ليملأ موضع الفراغات ، وتتولد بذلك سلسلة من أمواج التضاغط والتخلخل فى الجو ، هى صوت الرعد .

وما دوىّ الرعد المعروف إلا سلسلة الانعكاسات التى تحدث لموجات صوت الرعد الأصلى من قواعد السحب وقمم المرتفعات ونحوها .

---

(١) A . I Reimann, Physics, Vol, PP 285 - 286, Barnes NoBle, inc., New York1971

(٢) الدكتور عمر فروخ : « إخوان الصفا » ، مرجع سابق ص ٧٤ .

٢ - استخدام القياس والمماثلة لاستحداث نظريات جديدة ، على نحو ما ذكر كمال الدين الفارسى فى كتابه « تنقيح المناظر لذوى الأبصار والبصائر » من أن « الحركة التى مر تقريرها فى الأضواء إنما هى على نحو حركة الأصوات ، لا على نحو حركة الأجسام » [١] . فهو بذلك يشير لأول مرة إلى أن الضوء يسرى بحركة موجية شأنه شأن الصوت الذى اتفق على أنه ينتقل فى تموجات .

ومما يحز فى نفس كل مسلم أن هذا الرأى المتقدم لكمال الدين الفارسى يذكر فى كتب العلم منسوبًا لعالم غربى يدعى « هيجنز » (*) نشره عام ١٦٩٠ م وأيدته تجربة يونج المشهورة عام ١٨٠١ م ، ثم تجربة فرنل عام ١٨١٤ م .

٣ - تطوير علم التأليف (الموسيقى والآلات الموسيقية) ، والتوصل إلى أن اهتزاز الأوتار يخضع لعلاقة ثابتة تربط بين طول الوتر وغلظه وقوة توتره وشدة النقر عليه ، وبين نوع الصوت الذى يحدث عنه . لكن الصياغة الرياضية لهذه العلاقة لم تتحقق إلا فى القرن السابع عشر .

● ولعل الكندى كان صاحب أول مدرسة عربية للموسيقى فى العصر الإسلامى ، وكانت الموسيقى عنده من العلم الطبيعى ، ولكنها أيضًا ذات صلة وثيقة بالرياضيات ، ثم هى ذات أثر فى شفاء الأمراض ، وكان يعدها وسيلة لتحقيق غاية إنسانية أعلى . [٢] .

٤ - الاستفادة من الخصائص المعروفة للصوت فى علم التصنيف ، مثال ذلك :

---

(١) د . على الدفاع ، ود . جلال شوقى « أعلام الفيزياء فى الإسلام » - ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م . ص ٦٩

(*) كم من سرقات وسطو على تراثنا الإسلامى والعربى . . ونحن عن السارق والمسروق غافلون . .

(٢) راجع فى ذلك د . أحمد فؤاد الإهوانى « الكندى فيلسوف العرب » - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ ، ص ١٦١ ، وما بعدها .

تصنيف الأصوات إلى أنواع منها : الجهير والخفيف والحاد والغليظ ، تبعًا لطبيعة الأجسام المصوتة وقوة تموج الهواء .

وأيضًا تصنيف الحيوانات إلى : حيوانات **ذوات الرئة** ، وهى التى تختلف أصواتها باختلاف أطوال أعناقها وسعة حلاقيمها ، وتركيب حناجرها وشدة استنشاقها الهواء وقوة دفع أنفاسها من أفواهها ومناخرها .

وحيوانات **ليست لها رئة** ولكن لها أجنحة كالزنابير ، وهى التى تحدث الأصوات نتيجة لتحرك الهواء بالأجنحة .

وحيوانات **ليست لها رئة ولا أجنحة** كالديدان ، والسلاحف ، وهى تسمى الحيوانات الخرس ، وتختلف الأصوات التى تحدثها باختلاف يبسها وصلابتها.

* * *

الملحق الثالث

السحر والسحرة وحقيقة الملكين ببابل

هاروت وماروت (*)

يقول الله تعالى :

﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

(*) مقتبس بتصرف لا يخل بالمعنى ص ٢٦٢ من تفسير : « التحرير والتنوير » : للعلامة الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى - طبع الدار التونسية سنة ١٩٨٤ م ، ونكتفى بشرحه للآية ﴿ واتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ﴾... إلى آخرها . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (رقم ١٠٢) ، وغرضنا فى هذا الملحق ردع المبطلين المشعوذين ، ورد الثقة للخائفين المتوهمين حتى من خيالهم .

(١) البقرة : ١٠٢ ، ١٠٣

obeikan.com

لمزيد من الفائدة ، وإرشادًا للمسلم الذى سيطرت عليه الخرافة والوهم ، نقتبس هذه المقطفات المفيدة ، من تفسير هذا العالم الجليل ، إعلاناً للحقيقة ، فى هذه الآية :

- المراد بالكتاب فى الآية السابقة : هو القرآن الكريم ، أو التوراة .

- سبب النزول : أن نبينا ﷺ ذكر أن سليمان عليه السلام نبى : فقالت اليهود : سليمان ساحر وليس بنبى .

- هل المقصود بالشياطين . . من الإنس ؟ أو من الجن ؟

- التلاوة إذا تعدى فعلها بعلى . . . تضمن الفعل معنى الكذب .

- سليمان ولد قبل المسيح - عليهما السلام بـ ١٠٣٢ سنة .

- حقيقة السحر . . . تمويه ، وتلبيس ، وتخييل ، وتعلمه خبث وسخافةوكفر وعصيان .

- كثر ذكر السحر بين المسلمين بعد الهجرة .

- الأديان والكتب السماوية تحرم السحر . . . ولكن الكهنة مارسوه أول الأمر ، والمشعوذين آخر الأمر،والدجالين حتى الآن مع الجهلة والإمعات .

- أصول السحر : التمويهات والإرهاب ، واستخدام مؤثرات من خصائص الأجسام ، والشعوذة ، والتمويه ، والتجسس بخفة الحركة والسرعة . جاء فى القرآن الكريم : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾، و﴿ إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ ، و﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ .

- يشترط فى الساحر : الذكاء وقوة الإرادة ، وكتمان السرّ ، والثبات .

- ويشترط فى المسحور : خور العقل ، وضعف العزيمة ، والجهالة ، والأمية .

- رأى علماء الإسلام فى السحر - وعقوبة الساحر عندهم ؟

- ما قصة الملكين ببابل ؟ وما حقيقة هاروت وماروت ؟

- إشكالات ودفعها .

- لماذا قال المعلمان : إنما نحن فتنة ، وهم يعلّمون ؟

- إفساد ما بين الزوجين ، كيف يتم ؟ وما خطره ؟

- النافع والضار هو الله تعالى .

- متعاطى السحر لا حظ له فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا الخسارة ، وغضب الله تعالى ، فأولى به عدم الاشتغال به ، وعدم الضحك به على السذج والبسطاء ، والضعفاء فى العقل والإيمان .

يقول العلامة ابن عاشور رحمه الله تعالى :

﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾

إن كان المراد بكتاب الله فى قوله « كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » (١) : القرآن، فالمعنى : أنهم لما جاءهم رسول الله مصدقًا لما معهم نبذوا كتابه بعلة أنهم متمسكون بالتوراة فلا يتبعون ما خالف أحكامها ، وقد اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وهو مخالف للتوراة ؛ لأنها تنهى عن السحر والشرك ، فكما قيل لهم فيما مضى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ﴾ ، يقال لهم : أفتؤمنون بالكتاب تارة ، وتكفرون به تارة أخرى .

وإن كان المراد بكتاب الله (التوراة) فالمعنى لما جاءهم رسول الله نبذوا ما فى التوراة من دلائل صدق هذا الرسول ، وهم مع ذلك قد نبذوها من قبل حين « اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان » ، مع أن ذلك مخالف لأحكام التوراة .

قال القرطبى : قال ابن إسحاق : لما ذكر النبى ﷺ سليمان فى الأنبياء

---

(١) فى الآية السابقة ، والضمير يرجع إلى اليهود العاصين .

قالت اليهود : إن محمدًا يزعم أن سليمان نبى ، وما هو بنبى ، ولكنه ساحر فنزلت هذه الآية .

و« الشياطين » يحتمل أن يكونوا شياطين من « الجن » ، وهو الإطلاق المشهور ، ويحتمل أن يراد به ناس تمردوا وكفروا وأتوا بالفظائع الخفية ، فأطلق عليهم الشياطين على وجه التشبيه كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ (١) ، وقرينة ذلك قوله : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ فإنه ظاهر فى أنهم يدرسونه للناس ، وكذلك قوله بعده : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ إذ هذا الاستدراك فى الإخبار يدل على أنهم من (الإنس) لأن كفر الشياطين من الجن أمر مقرر لا يحتاج للإخبار عنه (١) .

(والاتباع) فى الأصل هو المشى وراء الغير ، ويكون مجازًا فى العمل بقول الغير .

والتلاوة قراءة المكتوب والكتاب وعرض المحفوظ عن ظهر قلب ، وفعلها يتعدى بنفسه : « يتلون عليكم آياتى » فتعديته بحرف الاستعلاء يدل على تضمنه معنى تكذب ، أى : تتلو تلاوة كذب على ملك سليمان ، كما يقول : تقوّل على فلان ، أى : قال عليه ما لم يقله ، وإنما فهم ذلك من حرف (على) . . . .

(وسليمان) هو النبى سليمان بن داود بن يسى من سبط يهوذا ، ولد سنة ١٠٣٢ قبل المسيح .

وولى ملك إسرائيل سنة ١٠١٤ قبل المسيح ، بعد وفاة أبيه داود النبى ، ملك إسرائيل ، وتوفى فى أورشليم سنة ٩٧٥ قبل المسيح ، وعظم ملك بنى

---

(١) ذكر هنا ما رواه ابن إسحاق ، أن الشياطين بعد موت النبى سليمان - عليه السلام - كتبوا السحر وختموه بخاتم سليمان ، أو أن آصف بن برخيا وزير سليمان كتب الحكمة لسليمان ، وزاد الشياطين أشياء عن السحر فيها ، فقالت اليهود : كان سليمان - عليه السلام - ساحرًا ، وما هو بساحر » .

إسرائيل فى مدته وكان يأكل من كسب يده كحداد ، مع أنه كان نبيًا وملكا ، حكيمًا شاعرًا ، وجعل لمملكته أسطولاً بحريًا عظيمًا كانت تمخر سفنه البحار إلى جهات قاصية مثل شرق إفريقيا . .

* *

وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان فى كتبهم ؛ فقد جاء فى سفر الملوك الأول : أن سليمان فى زمن شيخوخته أمالت نساؤه المصريات والصيدونيات والعمونيات قلبَه إلى آلهتهن ، مثل : (عشتروت) إله الصيدونيين ، و(مُولوك) إله العمونيين (الفينيقيين) ، وبنى لهاته الآلهة هياكل فغضب الله عليه ؛ لأن قلبه مال عن إله إسرائيل ، الذى أوصاه أن لا يتبع آلهة أخرى ، لذلك قال الله تعالى مكذبًا لهم : ﴿ ومَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ (١) .

* *

● **حقيقة السحر** : وقوله : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ حال من ضمير كفروا ، والمقصود منه تشنيع حال كفرهم إذ كان مصحوبًا بتعليم السحر

* والسحر : الشعوذة ، وهى تمويه الحيل بإخفائها تحت حركات وأحوال يظن الرائى أنها هى المؤثرة ، مع أن المؤثر خفى ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (٢) ، ولذلك أطلق السحر على الخديعة تقول:سحرت الصبى إذا عللته بشىء ، قال لبيد :

فـــإن تسألينا فيمَ نحنُ فإننا عصافيرُ مِن هذا الأنامِ المسحّر

ثم أطلق على ما علم ظاهره وخفى سببه ، وهو التمويه والتلبيس وتخييل

---

(١) شياطين الإنس ، أو شياطين الجن . (٢) الحجر : ١٤ ، ١٥

غير الواقع واقعًا ، وترويج المحال ، تقول العرب : عنز مسحورة إذا عظم ضرعها وقل لبنها ، وأرض مسحورة : لا تنبت ، قال أبو عطاء :

فـوالله ما أدرى وإنى لصـادق أداء عرانى من حبابك أم سحر

أى شيء لا يعرف سببه .

والعرب تزعم : أن الغيلان سحرة الجن ؛ لما تتشكل به من الأشكال وتعرضها للإنسان .

والسحر من المعارف القديمة التى ظهرت فى منبع المدنية الأولى ، أعنى : ببلاد المشرق ، فإنه ظهر فى بلاد الكلدان والبابلين وفى مصر فى عصر واحد ، وذلك فى القرن الأربعين قبل المسيح ، مما يدل على أنها كانت فى تينك الأمتين من تعاليم قوم نشأوا قبلهما ، فقد وجدت آثار مصرية سحرية فى عصر العائلة الخامسة من الفراعنة والعائلة السادسة (٣٩٥١ - ٣٧٠٣) ق . م

* *

● للعرب خيال واسع فى السحر :

للعرب فى السحر خيال واسع ، وهو : أنهم يزعمون أن السحر يقلب الأعيان ، ويقلب القلوب ، ويطوع المسحور للساحر ؛ ولذلك كانوا يقولون : إن الغول ساحرة الجن ولذلك تتشكل للرائى بأشكال مختلفة .

وقالت قريش لما رأوا معجزات رسول الله : إنه ساحر ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (١) ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (٢) .

وفى حديث البخارى عن عمران بن حصين : أن القوم عطشوا فى سفر

---

(١) القمر : ٢ (٢) الحجر : ١٤ ، ١٥

مع رسول الله فطلبوا الماء ، فوجدوا امرأة على بعير لها مزادتان من ماء ، فأتيا بها رسول الله فسقى رسول الله جميع الجيش ، ثم رد إليها مزاديتها كاملتين ، فقالت لقومها : فوالله إنه لأسْحَرُ من بين هذه وهذه ، تعنى السماء والأرض .

وفى الحديث : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » . . ولم أر ما يدل على أن العرب كانوا يتعاطون السحر ، فإن السحر مستمد من خصائص الأمور الطبيعية والتركيب ، ولم يكن للعرب ضلاعة فى الأمور اليدوية ، بل كانت ضلاعتهم فكرية محضة ، وكان العرب يزعمون : أن أعلم الناس بالسحر اليهود والصابئة ، وهم أهل بابل ، ومساق الآية يدل على شهرة هؤلاء بالسحر عند العرب .

وقد اعتقد المسلمون : أن اليهود فى يثرب سحروهم فلا يولد لهم ؛ فلذلك استبشروا لما ولد عبد الله بن الزبير ، وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، كما فى صحيح البخارى . ولذلك لم يكثر ذِكْر السحر بين العرب المسلمين . . إلا بعد أن هاجروا إلى المدينة ؛ إذ قد كان فيها اليهود ، وكانوا يوهمون بأنهم يسحرون الناس .

* *

ويداوى من السحر العراف ، ودواء السحر : السلوة ، وهى خرزات معروفة تحك فى الماء ويُشرب ماؤها . .

* *

● الكتب السماوية تحرم السحر :

وورد فى التورلة : النهى عن السحر ؛ فهو معدود من خصال الشرك ، وقد وصفت التوراة به أهل الأصنام : فقد جاء فى سفر التثنية فى الإصحاح ١٨ : « إذا دخلتَ الأرض التى يعطيك الرب إلَهُك . لا تتعلمْ أن تفعل مثل رجس أولئك الأُمم ، لا يوجد فيك من يَزجّ ابنه أو ابنته فى النار ، ولا مَن يَعْرِف

عِرَافَة ، ولا عائف ، ولا متفائل ، ولا ساحر ، ولا من يَرقى رقية ، ولا من يسأل جانًا ، أو تابعه ، ولا من يستشير الموتى ؛ لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب » .

* وفى سفر اللاويين الإصحاح ٢٠ (٦) والنفس التى تلتفت إلى الجان وإلى التوابع لتزنى وراءهم . . أجْعل وجهى ضد تلك النفس وأقطُعها من شعبها » (٢٧) ، وإذا كان فى رجل أو امرأة جانٌّ أو تابعة فإنه يقتل بالحجارة يرجمونه دمُه عليه) .

* وكانوا يجعلونه أصلاً دينيًا لمخاطبة أرواح الموتى وتسخير الشياطين وشفاء الأمراض [١] .

وقد استفحل أمره فى بلد الكلدان وخلطوه بعلوم النجوم وعلم الطب .

وأرجع المصريون المعارف السحرية إلى جملة العلوم الرياضية التى أفاضها عليهم « طوط » ، الذى يزعمون أنه إدريس ، وهو هرمس عند اليونان .

وقد استخدم الكلدان والمصريون فيه أسرارًا من العلوم الطبيعية والفلسفية والروحية قصدًا لإخراج الأشياء فى أبهر مظاهرها ؛ حتى تكون فاتنة أو خادعة وظاهرة ، كخوارق عادات ، إلا أنه شاع عند عامتهم وَبَعُدَ ضَلالهم عن المقصد العلمى منه ، فصار عبارة عن التمويه والتضليل ، وإخراج الباطل فى صورة الحق ، أو القبيح فى صورة حسنة أو المضر فى صورة النافع .

● **وعند الكلدان وكهنة مصر :**

وقد صار عند الكلدان والمصريين خاصية فى يد الكهنة ، وهم يومئذ أهل العلم من القوم الذين يجمعون فى ذواتهم الرئاسة الدينية والعلمية ، فاتخذوا قواعد العلوم الرياضية والفلسفية والأخلاقية ، لتسخير العامة إليهم ، وإخضاعهم بما يظهرونه من المقدرة على علاج الأمراض والاطلاع على الضمائر بواسطة الفراسة والتأثير بالعين والمكائد [٢] .

* وقد نقلته الأُمم عن هاتين الأمتين وأكثر ما نقلوه عن الكلدانيين ، فاقتبسه

---

(١) يضحكون به على الجهالة ؛ ويأكلون أموالهم بغير حق .
(٢) وزرق الهبل على المجانين .

منهم السريان (الأشوريون) واليهود والعرب وسائر الأمم المتدينة ، والفرس واليونان والرومان .

* *

● **وأصول السحر ثلاثة :**

الأول : زجر النفوس بمقدمات توهيمية وإرهابية بما يعتاده الساحر من التأثير النفسانى فى نفسه ، ومن الضعف فى نفس المسحور ، ومن سوابقَ شاهدها المسحور واعتقدها ، فإذا توجه إليه الساحر سُخر له ، وإلى هذا الأصل الإشارة بقوله تعالى فى ذكر سحرة فرعون : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ (١) .

الثانى : استخدام مؤثرات من حصائص الأجسام من الحيوان والمعدن ، وهذا يرجع إلى خصائص طبيعية كخاصية الزئبق ، ومن ذلك لعقاقير المؤثرة فى العقول صلاحًا أو فسادًا ، والمفترة للعزائم والمخدرات والمرقدات على تفاوت تأثيرها . . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى فى سحرة فرعون : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ (٢) .

الثالث : الشعوذة واستخدام خفايا الحركة والسرعة والتموج ؛ حتى يخيل الجماد متحركًا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (٣) .

هذه أصول السحر بالاستقراء .

وقد قسمها الفخر فى التفسير إلى ثمانية أقسام لا تَعْدُوا هذه الأصول الثلاثة وفى بعضها تداخل . . ولعلماء الأفرنج تقسيم آخر ليس فيه كبير جدوى .

وهذه الأصول الثلاثة كلها أعمال مباشرة للمسحور ومتصلة به ، ولها تأثير عليه بمقدار قابلية نفسه الضعيفة وهو لا يتفطن لها ، ومجموعها هو الذى

---

(١) الأعراف : ١١٦ (٢) طه : ٦٩ (٣) طه : ٦٦

أشارت إليه الآية ، وهو الذى لا خلاف فى إثباته على الجملة دون تفصيل ، وما عداها من الأوهام والمزاعم هو شىء لا أثر له ، وذلك كل عمل لا مباشرة له بذات من يراد سحره ويكون غائبًا عنه فيدعى أنه يؤثر فيه .

وهذا مثل : رسم أشكال يعبر عنها بـ **الطلاسم** ، أو عقد خيوط **والنفث** عليها برقيات معينة ، تتضمن الاستنجاد بالكواكب ، أو بأسماء الشياطين والجن وآلهة الأقدمين .

وكذا كتابة اسم المسحور فى أشكال ، أو وضع صورته أو بعض ثيابه وعلائقه وتوجيه كلام إليها بزعم أنه يؤثر ذلك فى حقيقة ذات المسحور .

أو يستعملون إشارات خاصة نحو جهته أو نحو بلده وهو ما يسمونه بالأرصاد .

وذكر أبو بكر ابن العربى فى القبس : أن قريشًا لما أشار النبى ﷺ بأصبعه فى التشهد قالوا هذا محمد يسحر الناس .

أو جمع أجزاء معينة وضم بعضها إلى بعض ، مع نية أن ذلك الرسم أو الجمع لتأثير شخص معين بضر أو خير أو محبة أو بغضة أو مرض أو سلامة ، ولا سيما إذا قرن باسم المسحور وصورته أو بطالع ميلاده .

فذلك كله من التوهمات ، وليس على تأثيرها دليل من لعقل ولا من الطبع ولا ما يثبته من الشرع [1] .

وقد أنحصرت أدلة إثبات الحقائق فى هذه الأدلة ، ومن العجائب : أن الفخر فى التفسير حاول إثباته بما ليس بمقنع .

* *

● **النبى محمد لم يسحر :**

وقد تمسك جماعة لإثبات تأثير هذا النوع من السحر ، بما روى فى الصحيحين - عن قول عائشة : أن لبيد بن الأعصم سحر النبى ﷺ ورؤيا

---

(١) الناس فى الغرب غاصوا فى أعماق البحار ، وصعدوا إلى آفاق الأفلاك والكواكب . . ومازال بعض السفهاء يغوصون فى قراءة الطالع والودع والفنجان ، فتبا للجهل والخرافة

النبى ﷺ أن ملكين أخبراه بذلك السحر ، وفى النسائى عن زيد بن أرقم مثله مختصرًا ، وينبغى التثبت فى عباراته ثم فى تأويله .

ولا شك أن لبيدًا حاول أن يسحر النبى ﷺ فقد كان اليهود سحرة فى المدينة وأن الله أطلع رسوله على ما فعله لبيد ، لتكون معجزة للنبى ﷺ فى إبطال سحر لبيد ، وليعلم اليهود أنه نبى ، لا تلحقه أضرارهم .

وكما لم يؤثر سحر السحرة على موسى ، كذلك . . لم يؤثر سحر لبيد على رسول الله ﷺ **وإنما عرض للنبى ﷺ عارض جسدى شفاه الله منه ، فصادف أن كان مقارنًا** لما عمله لبيد بن الأعصم من محاولة سحره ، وكانت رؤيا النبى ﷺ إنباء من الله له بما صنع لبيد ، والعبارة عن صورة تلك الرؤيا كانت مجملة ؛ فإن الرؤى رموز ، ولم يرد فى الخبر تعبير ما اشتملت عليه ، فلا تكون أصلاً لتفصيل القصة .

● شروط وأحوال التأثير فى الساحر والمسحور :

ثم إن لتأثير هاته الأسباب أو الأصول الثلاثة شروطًا وأحوالاً : بعضها فى ذات الساحر ، وبعضها فى ذات المسحور .

فيلزم فى الساحر : أن يكون مفرط الذكاء ، منقطعًا لتجديد المحاولات السحرية ، جسورًا قوى الإرادة ، كتومًا للسر ، قليل الاضطراب للحوادث ، سالم البنية ، مرتاض الفكر خفى الكيد والحيلة ، ولذلك كان غالب السحرة رجالاً ، ولكن كان الحبشة يجعلون السواحر نساء ، وكذلك كان الغالب فى الفرس والعرب ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ ، فجاء بجمع الإناث ، وكانت الجاهلية تقول إن الغيلان عجائز من الجن ساحرات ، فلذلك تستطيع التشكل بأشكال مختلفة ، وكان معلمو السحر يمتحنون صلاحية تلامذتهم لهذا العلم : بتعريضهم للمخاوف ، وأمرهم بارتكاب المشاق ، تجربة لمقدار عزائمهم وطاعتهم .

* وأما ما يلزم فى المسحور : فخور العقل ، وضعف العزيمة ، ولطافة

البنية ، وجهالة العقل ، ولذلك كان أكثر الناس قابلية له : النساء والصبيان والعامة،ومن يتعجب فى كل شىء .

ولذلك كان من أصول السحر إلقاء أقوال كاذبة على المسحور ؛ لاختبار مقدار عقله فى التصديق بالأشياء الواهية والثقة بالساحر ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) ، فجعلوا ذلك القول الغريب سحرًا .

* *

● **التمويه فى السحر** : ثم تحف بالسحر أعمال القصد منها التمويه ، وهذه الأعمال أنواع :

١ - نوع الغرض منه تقوية اعتقاد الساحر فى نجاح عمله ، لتقوى عزيمته فيشتد تأثيره على النفوس ، وهذا مثل : تلقين معلمى هذا الفن تلامذتهم عبادة كواكب ومناجاتها لاستخدام أرواحها ، والاستنجاد بتلك الأرواح على استخدام الجن والقوى المتعاصية ؛ ليعتقد المتعلم أن ذلك سبب نجاح عمله ، فيقدم عليه بعزم ، وفى ذلك تأثير نفسانى عجيب ، ولذلك يسمون تلك الأقوال والمناجاة : عزائم جمع عزيمة ، ويقولون : فلان يعزِّم إذا كان يسحر ، ثم هو إذا استكمل المعرفة .. قد يتفطن لقلة جدوى تلك العزائم وقد لا يتفطن . وعلى كلتا الحالتين فمعلموه لا يتعرضون له فى نهاية التعليم بالتنبيه على فساد ذلك ، لئلا يدخلوا عليه الشكوك فى مقدرته ؛ فلذلك بقيت تلك الأوهام يتلقاها الأخلاف عن أسلافهم .

ومن هذا النوع : ضروب هى فى الأصل تجارب لمقدار طاعة المتعلم لمعلمه بقيت متلقاة عندهم عن غير بصيرة ، مثل : ارتكاب الخبائث ، وإهانة الصالحات والأمور المقدسة ؛ إيهامًا بأنها تُبلِّغ إلى مرضاة الشياطين وتسخيرها ،

---

(١) هود : ٧

وذلك فى الواقع اختبار لمقدار خضوع المتعلم ؛ لأن أكبر شىء على النفس نبذ **أعز الأشياء وهو الدين** ، ولأن السحرة ليسوا من الملَّيين ، فهم يبلغون بمريديهم إلى مبالغهم السافلة .

وقد سمعنا : أن كثيرًا ممن يتعاطون السحر فى المسلمين يزعمون أنهم لا يتأتى لهم نجاح إلا بعد أن يلطخوا أيديهم بالنجاسات أو نحو من هذا الضلال .

* *

٢ - **ونوع** الغرض منه : إخفاء الأسباب الحقيقية لتمويهاتهم ، حتى لا يطلعَ الناس على كنهها ؛ فيستندون فى تعليل أعمالهم إلى أسباب كاذبة : كندائهم بأسماء سموها لا مسميات لها ، ووضعهم أشكالاً على الورق أو فى الجدران ، يزعمون أن لها خصائص التأثير ، واستنادهم لطوالع كواكب فى أوقات معينة ، لا سيما القمر ، ومن هذا تظاهرهم للناس بمظهر الزهد والهمة .

* *

٣ - **ونوع** يستعان به على نفوذ السحر ، وهو التجسس والتطلع على خفايا الأشياء وأسرارِ الناس بواسطة : السعى بالنميمة ، وإلقاء لعداوات بين الأقارب والأصحاب والأزواج حتى يُفْشِىَ كل منهم سر الآخر ؛ فيتخذ الساحر تلك الأسرار وسيلة يُلقى بها الرعب فى قلوب أصحابها ، بإظهار أنه يعلم الغيب والضمائرَ ، ثم هو يأمر أولئك الذين أرهبهم ويستخدمهم بما يشاء فيطيعونه : فيأمر المرأة بمغاضبة زوجها ، وطلب فراقه ، ويأمر الزوج بطلاق زوجته ، وهكذا . .

وفى هذا القسم تظهر مقدرة الساحر الفكرية ، وبه تكثر أضراره وأخطاره على الناس ، وجرأته على ارتكاب المرعبات والمطوِّعات ؛ باستئصال الأموال بالسرقة يسرقها من لا يتهمه المسروق ، ومنه : أنه يفعل ذلك من خاصته وأبنائه وزوجه الذين يستهويهم السحرة ويسخرونهم للإخلاص لهم ، وينتهى فعل

السحرة فى هذا إلى حد إزهاق النفوس التى يشعرون بأنها تفطنت لخديعتهم ، أو التى تعاصت عن امتثال أوامرهم يُغرون بها من هى آمن الناس منه ، ثم استطلاع ضمائر الناس بتقريرات خفية ، وأسئلة تدريجية يوهمه بها أنه يسأله عنها ليعلمه بمستقبله .

* *

٤ - ونوع يُجعل اختبارًا لمقدار مراتب أذهان الناس فى قابلية سحره : وذلك بوضع أشياء فى الأطعمة خيفة الظهور ؛ ليرى هل يتفطن لها من وضَعها . وبإبراز خيالات أو أشباح يوهم بها الناظر أنها جن أو شياطين أو أرواح ، وما هى إلا أشكال مموهة أو أعوان من أعوانه متنكرة ، لينظر هل يقتنع رائيها بما أخبره الساحر عنها . . أم يتطلب كشف حقيقتها أو استقصاء أثرها .

* *

● **الأديان الحقَّة تحرم السحر :**

فكان السحر قرين خباثة نفس ، وفساد دين ، وشرٌ عمل ، وإرعاب وتهويل على الناس ، من أجل ذلك ما فتئت الأديان الحقة تحذر الناس منه ، وتعد الاشتغال به مروقًا عن طاعة الله تعالى ؛ لأنه مبنى على اعتقاد تأثير الآلهة والجِن المنسوبين إلى الآلهة فى عقائد الأقدمين .

وقد حذر موسى - عليه السلام - قومه من السحر وأهله .

ففى سفر التثنية : الإصحاح ١٨ أن مما خاطب به موسى - عليه السلام - قومه : (متى دخلتَ الأرضَ التى يعطيك الربُ إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأُمم ، لا يوجد فيك من يجيز [١] ابنه أو ابنته فى النار ، ولا من يَعرُف عِرَافة ولا عائفٌ ولا متفائلٌ ولا ساحرٌ ، ولا من يَرقى رُقية ، ولا من يسأل جانًا أو تابعة ، ولا من يستشير الموتى) .

---

(١) كذا ولعل المراد : من يزج أو يجوز به .

وجعلت التوراة جزاء السحرة القتل : ففى سفر اللاويين الإصحاحين ٢٠ - ٢٧ : « وإذا كان فى رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل » .

وذكروا عن مالك أنه قال : الأسماء التى يكتبها السحرة فى التمائم : أسماء أصنام .

وقد حذر الإسلام من عمل السحر وذمه فى مواضع ، وليس ذلك بمقتضى إثبات حقيقة وجودية للسحر على الإطلاق ، ولكنه تحذير من فساد العقائد ، وخلع قيود الديانة ، ومن سخيف الأخلاق .

* *

● اختلاف علماء الإسلام فى حقيقة السحر :

وقد اختلف علماء الإسلام فى إثبات حقيقة السحر وإنكارها ، وهو اختلاف فى الأحوال فيما أراه : فكل فريق نظر إلى صنف من أصناف ما يُدعَى بالسحر .

● حكى عياض فى (إكمال العلم) : أن جمهور أهل السُّنَّة ذهبوا إلى إثبات حقيقته . قلت : وليس فى كلامهم وصف كيفية السحرِ الذى أثبتوا حقيقته فإنما أثبتوه على الجملة . .

وذهب عامة المعتزلة إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل ، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة ، ووافقهم على ذلك بعض أهل السنة كما اقتضته حكاية عياض فى (الإكمال) ، قلت : وممن سُمِّى منهم أبو إسحاق الاسترابادى من الشافعية . والمسألة بحذافرها من مسائل الفروع الفقهية تدخل فى عقاب المرتدين والقاتلين والمتحيلين على الأموال ، ولا تدخل فى أصول الدين . وهو وإن أنكره الملاحدة لا يُقتضى أن يكون إنكاره إلحادًا . وهذه الآية غير صريحة . وأما الحديث فقد علمته آنفًا .

* *

● عقوبة الساحر :

شدد الفقهاء العقوبة فى تعاطيه ، قال مالك : يقتل الساحر ولا يستتاب إن كان مسلمًا ، وإن كان ذميًا لا يقتل . . بل يؤدب ، إلا إذا أدخل بسحره أضرارًا على مسلم ، فإنه يقتل ؛ لأنه يكون ناقضًا للعهد ؛ لأن من جملة العهد أن لا يتعرضوا للمسلمين بالأذى . قال الباجى (فى المنتقى) رأى مالك أن السحر كفر وشرك ودليلٌ عليه . وإنه لما كان يستتر صاحبه بفعله فهو كالزندقة لأجل إظهار الإسلام وإبطان الكفر ؛ ولذلك قال ابن عبد الحكم وابن المواز وأصبغ : هو كالزنديق : إن أسرّ السحر لا يستتاب ، وإن أظهره استتيب ، وهو تفسير لقول مالك لا خلاف له ، قال الباجى : فلا يقتل حتى يثبت أن ما يفعله من السحر هو الذى وصفه الله بأنه كفر . قال أصبغ يكشف ذلك من يعرف حقيقته ويثبت ذلك عند الإمام . وفى (الكافى) لابن عبد البر : إذا عمل السحر لأجل القتل وقتَل به قُتل وإن لم يكن كفرًا . وقد أدخل مالك فى الموطأ السحر فى باب الغيلة ، فقال ابن العربى فى (القبس) وجه ذلك : أن المسحور لا يَعلم بعمل السحر حتى يقع فيه ، قلت : لا شك أن السحر الذى جُعل جزاؤه القتل هو ما كان كفرًا صريحًا مع الاستتار به ، أو حصل به إهلاك النفوس :وذلك أن الساحر كان يَعِد من يأتيه للسحر . . بأن فلانًا يموت الليلة أو غدًا أو يصيبه جنون ، ثم يتحيل فى إيصال سموم خفية من العقاقير إلى المسحور . . تُلقى له فى الطعام بواسطة أناس من أهل المسحور ، فيصبح المسحور ميتًا أو مختل العقل ، فهذا هو مراد مالك بأن جزاءه القتل أى إن قتل . ولذلك قال : لا تقبل توبته ، وبدون هذا التأويل لا يصح فقه هذه المسألة .

فقول مالك فى السحر ليس استنادًا لدليل معين فى خصوص السحر ، ولكنه من باب تحقيق المناط بتطبيق قواعد التعزير والإضرار .

ولبعض فقهاء المذهب فى حكاية هذه المسألة إطلاقات عجيب صدورها من

أمثالهم ، على أن السحر أكثر ما يتطلب لأجل تسخير المحبين محبوبيهم ؛ فهو وسيلة فى الغالب للزنا أو للانتقام من المحبوب أو الزوج : سئل مالك عمن يعقد الرجال عن النساء وعن الجارية تطعم رجلاً شيئًا فيذهب عقله ؟ فقال : لا يقتلان : فأما الذى يعقد فيؤدب ، وأما الجارية فقد أتت أمرًا عظيمًا . قيل : أفتقتل ؟ فقال : لا ، قال ابن رشد فى البيان رأى أن فعلها ليس من السحر أ . هـ .

* وقال **أبو حنيفة** : يقتل الرجل الساحر ولا يستتاب ، وأما المرأة فتحبس حتى تتركه ، فجعل حكمه حكم (المرتد) ووجَّه أبو يوسف بأنه جمع مع كفره السعى فى الأرض بالفساد ، وعن الشيخ أبى منصور أن القول بأن السحر كفر على الإطلاق **خطأ** بل يجب البحث عن حقيقته : فإن كان فى ذلك رد ما لزم من شرط الإيمان فهو كفر وإلا فلا ، وما ليس بكفر وفيه إهلاك النفس ، ففيه حكم **قُطاع الطريق** ، ويستوى فيه الذكور والإناث ، وتقبل توبته إذا تاب . ومن قال : لا تقبل فقد خلط ، فإن سحرة فرعون قبلت توبتهم أ . هـ ، وهذا استدلال بشرع من قبلنا .

* وقال **الشافعى** : يُسأل الساحر عن سحره ، فإن ظهر منه ما هو كفر فهو كالمرتد يستتاب ، فإن أصر قتل ، وإن ظهر منه تجويز تغيير الأشكال لأسباب قراءة تلك الأساطير أو تدخين الأدوية ، وعَلِم أنه يفعل محرمًا فحكمه حكم الجناية ؛ فإن اعترف بسحر إنسان وأنَّ سحره يقتل غالبًا قُتل قودًا (يعنى إذا ثبت أنه مات بسببه) ، وإن قال : إن سحْرى قد يقتل وقد لا يقتل فهو شِبه عمد ، وإن كان سِحره لغير القتل ؛ فمات منه فهو قتل خطأ تجب الدية فيه مخففة فى ماله .

* ويجب أن يستخلص من اختلافهم ومن متفرق أقوالهم . . ما يكون فيه بصيرة لإجراء أعمال ما يسمى بالسحر وصاحبُه بالساحر : مُجْرَى جنايات أمثاله ومقدار ما أثره من الاعتداء دون مبالغة ولا أوهام .

وقد يطلق اسم الساحر اليوم على اللاعب بالشعوذة فى الأسمار وذلك من أصناف اللهو فلا ينبغى عدّ ذلك جناية .

* *

● قصة الملكين ببابل :

﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ .

(ما) موصولة ، والواو عاطفة على أول الآية ﴿ واتَّبَعُوا ﴾ ، وقرئ الملكين بفتح اللام وكسرها ، وهل هناك فرق بين السحرين : تلاوة الشياطين ؟ وما أنزل على الملكين ؟ يقول العلامة ابن عاشور :

. . . . وكل هاته الوجوه تقتضى ثبوت نزول شىء على الملكين ببابل وذلك هو الذى يعنيه سياق الآية إذا فَصَّلت كيفية تعليم هذين المعلمين علم السحر :

* فالوجه أن قوله : « وما أنزل » عطف على « مُلك سليمان » ، فهو معمول لتتلوا الذى هو بمعنى تكذب فيكون المراد عدم صحة هذا الخبر أى ما تكذبه الشياطين على ما أنزل على المَلكين ببابل ، أى ينسبون بعض السحر إلى ما أنزل ببابل .

قال الفخر وهو اختيار أبى مسلم ، وأنكر أبو مسلم : أن يكون السحر نازلاً على المَلَكَيْن ؛ إذ لا يجوز أمر الله به ، وكيف يتولى الملائكة تعليمه مع أنه كفر أو فسق ؟

وقيل : (ما) نافية معطوفة على ما كفر سليمان : أى وما كفر سليمان بوضع السحر كما يزعم الذين وضعوه ، ولا أنزل السحر على 'لملكين ببابل .

وتعريف (الملكين) تعريف الجنس ، أو هو تعريف العهد بأن يكون الملكان معهودين لدى العارفين بقصة ظهور السحر .

* *

وقد قيل إن هارون وماروت بدل من الشياطين ، وأن المراد بالشياطين : شيطانان وضعا السحر للناس هما هاروت وماروت ؛ على أنه من إطلاق الجمع على المثنى كقوله : « قلوبكما » ، وهذا تأويل خطأ ؛ إذ يصير قوله : « على الملكين » كلامًا حشوًا .

* *

● **إشكال ودفعُهُ :**

وعلى ظاهر هذه الآية إشكال من أربعة وجوه :

أحدها : كون السحر مُنْزَلاً إن حمل الإنزال على المعروف منه وهو الإنزال من الله .

الثانى : كون المباشر لذلك مَلَكَيْن من الملائكة على القراءة المتواترة .

الثالث : كيف يَجْمَع الملكان بين قولهما : نحن فتنة ، وقولهما : فلا تكفر ؟ فكيف يجتمع قصة الفتنة مع التحذير من الوقوع فيها .

الرابع : كيف حصرا حالهما فى الاتصاف بأنهما فتنة ؟ فما هى الحكمة فى تصديهما لذلك ؛ لأنهما إن كانا مَلَكَيْن (بفتح اللام) فالإشكال ظاهر ، وإن كانا مِلكين بكسر اللام . . فهما قد علما مضرة الكفر ؛ بدليل نهيهما عنه وعلمًا معنى الفتنة ؛ بدليل قولهما : إنما نحن فتنة ، فلماذا تورطا فى هذه الحالة ؟

* ودفع هذا الإشكال برمته : أن الإنزال هو الإيصال ، وهو إذ تعدى بعلى يدل على إيصال من علو ، واشتهر ذلك فى إيصال العلم من وحى أو إلهام أو نحوهما ، فالإنزال هنا بمعنى الإلهام وبمعنى الإيداع فى العقل أو فى الخلقة : بأن يكون الملكان قد برعا فى هذا السحر وابتكرا منه أساليب لم يسبق لهما تلقيها من معلم ، شأن العلامة المتصرف فى علمه المبتكر لوجوه المسائل وعللها وتصاريفها وفروعها .

والظاهر عندى : أن ليس المراد بالإنزال إنزال السحر ؛ إذ السحر أمر

موجود من قبل ، ولكنه إنزال الأمرِ للملكَين ، أو إنزال الوحى أو الإلهام للملكين : بأن يتصديا لبث خفايا السحريين المتعلمين ؛ ليبطل انفراد شرذمة بعلمه ، فيندفع الوجهان الأول والثانى .

ثم إن الحكمة من تعميم تعليمه : أن السحرة فى بابل كانوا اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم فى أبدانهم وعقولهم وأموالهم ، ثم تطلعوا منه إلى تأسيس عبادة الأصنام والكواكب ، وزعموا أنهم - أى السحرة - مترجمون عنهم وناطقون بإرادة الآلهة . . فحدث فساد عظيم وعمت الضلالة ، فأراد الله على معتاد حكمته إنقاذ الخلق من ذلك : فأرسل أو أوحى أو ألهم(هاروت وماروت)أن يكشفا دقائق هذا الفن للناس ؛ حتى يشترك الناس كلهم فى ذلك فيعلموا أن السحرة ليسوا على ذلك ويرجع الناس إلى صلاح الحال ، فاندفع الوجه الثالث .

وأما الوجه الرابع : فستعرف دفعه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ . . . الآية .

* وفى قراءة ابن عباس والحسن الملِكَين بكسر اللام وهى قراءة صحيحة المعنى فمعنى ذلك أن ملكين كانا يملكان ببابل قد علما علم السحر .

وعلى قراءة فتح اللام : فالأظهر فى تأويله أنه استعارة وأنهما رجلان صالحان ، كان حكما مدينة بابل ، وكانا قد أطلعا على أسرار السحر التى كانت تأتيها السحرة ببابل ، أو هما وضعا أصله ، ولم يكن فيه كفر ، فأدخل عليه الناس الكفر بعد ذلك .

وقيل : هما ملكان أنزلهما الله تعالى ، تشكلا للناس يعلمانهم السحر لكشف أسرار السحرة ؛ لأن السحرة كانوا يزعمون أنهم آلهة أو رسل . . فكانوا يسخرون العامة لهم ، فأراد الله تكذيبهم ذبا عن مقام النبوءة ، فأنزل ملكين لذلك .

وقد أجيب : بأن تعلم السحر فى زمن هاروت وماروت جائز على جهة

الابتلاء من الله لخلقه : فالطائع لا يتعلمه والعاصى يبادر إليه ، وهو فاسد لمنافاته عموم قوله تعالى : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ ﴾ . قالوا كما امتحن الله قوم طالوت بالنهر . . إلخ . . ولا يخفى فساد التنظير .

* وبابل بلد قديم من مدن العالم وأصل الاسم باللغة الكلدانية (باب إيلو) أى باب الله ويرادفه بالعبرانية (باب إيل) ، وهو بلد كائن على ضفتى الفرات . . . . . .

* *

* (وهاروت وماروت) بدل من الملكين ، وهما اسمان كلدانيان دخلهما تغيير التعريف لإجرائهما على خفة الأوزان العربية ، والظاهر أن هاروت معرب (هاروكا) ، وهو اسم القمر عند الكلدانيين وأن ماروت معرب (مارورداخ) ، وهو اسم المشترى عندهم .

فيكون (هاروكا) و(مارورداخ) قد كانا من قدماء علمائهم وصالحيهم والحاكمين فى البلاد ، وهما اللذان وضعا السحر . ولعل هذا وجه التعبير عنهما فى القصة بالملكَين بفتح اللام .

* *

وقوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ جملة حالية من هاروت وماروت ، وما نافية والتعبير بالمضارع لحكاية الحال إشارة إلى أن قولهما لمتعلمى السحر : ﴿ إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ ، قول مقارن لوقت التعليم لا متأخر عنه . . . وقد علم من هذا أنهما كانا معلمين ، وطوى ذلك للاستغناء عنه بمضمون هاته الجملة فهو من إيجاز الحذف ، أو هو من لحن الخطاب مفهوم للغاية .

وقوله : ﴿ إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ ، الفتنة : لفظ يجمع معنى مرج واضطراب أحوال أحد وتشتت باله بالخوف والخطر على الأنفس والأموال ، على غير عدل ولا نظام،وقد تخصص . . وتعمم بحسب ما تضاف إليه أو بحسب المقام ، يقال : فتنة المال وفتنة الدين .

﴿ فَلا تَكْفُرْ ﴾ ، كما كفر السحرة حين نسبوا التأثيرات للآلهة ، وقد علمت سرها . . فمعنى لا تكفر . . أى لا تفتتن . وبذلك اندفعت كل الإشكالات السابقة .

* *

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ .

قوله : ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ إشارة إلى جزئى من جزئيات السحر ، وهو أقصى تأثيراته : إذ فيه التفرقة بين طرفى آصرة متينة ؛ إذ هى آصرة مودة ورحمة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (١) ، فإن المودة وحدها آصرة عظيمة ، وهى آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما ، والرحمة وحدها آصرة منها الأبوة والبنوة ، فما ظنكم بآصرة جمعت الأمرين ، وكانت بجعل الله تعالى ، وما هو بجعل الله فهو فى أقصى درجات الإتقان .

وهذا التفريق يكون إما باستعمال مفسدات لعقل أحد الزوجين حتى يبغض زوجه وإما بإلقاء الحيل والتمويهات والنميمة حتى يفرق بينهما .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ جملة معترضة ، وهذا تنبيه على أن السحر لا تأثير له بذاته ، وإنما يختلف تأثير حيله باختلاف قابلية المسحور ، وتلك القابلية متفاوتة ، ولها أحوال كثيرة أجملتها الآية بالاستثناء من قوله - سبحانه - : ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أى يجعل الله أسباب القابلية لأثر السحر فى بعض النفوس .

فهذا إجمال حسن مناسب لحال المسلمين الموجه إليهم الكلام ؛ لأنهم تخلقوا بتعظيم الله تعالى وقدرته،وليس المقام مقام تفصيل الأسباب والمؤثرات ، ولكن المقصود إبطال أن تكون للسحر حالة ذاتية وقواعد غير مموهة ، فالباء فى قوله : ﴿ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ للملابسة . . .

---

(١) الروم : ٢١

﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾: أى إلا بما أعد الله فى قابل السحر من استعداد لأن يضر به ، فإن هذا الاستعداد وإمكان التأثر مخلوق فى صاحبه ، فهو بإذن الله ومشيئته .

فليس المعنى أن السحر قد يضر وقد لا يضر ، بل المعنى أنه لا يضر منه إلا ما كان إيصال أشياء ضارة بطبعها . وقوله : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ ، يعنى : ما يضر الناس ضرًا آخر غير التفرقة بين المرء وزوجه ، فضمير يضرهم عائد على غير ما عاد عليه ضمير يتعلمون ، والمعنى أن أمور السحر لا يأتى منها إلا الضر أى فى الدنيا ، فالساحر لا يستطيع سحر أحد ليصير ذكيًا بعد أن كان بليدًا ، أو ليصير غنيًا بعد الفقر ، وهذا زيادة تنبيه على سخافة عقول المشتغلين به ، وهو مقصد الآية .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

الواو للعطف أو للحال . واللام فى (لقد) لام القسم أو لام الابتداء وكذلك لام (لمن) للقسم أو للابتداء . . .

والمعنى بإيجاز : أن اليهود اتبعوا ما تتلوا الشياطين مع علمهم بأن الذى يتعلم ذلك ويضحك به على الناس ليأكل أموالهم بالباطل ، ماله فى الآخرة ولا فى الدنيا من خلاق ولا بركة ، وإنما لهم الخسران المبين . . وكذلك كل من يعمل ذلك .

(والاشتراء) هو اكتساب شىء ببذل غيره ، فالمعنى : أنهم اكتسبوه ببذل إيمانهم المعبر عنه فيما يأتى بقوله أنفسهم .

(والخلاق) الحظ من الخير خاصة . وجاءت « خلاق » نكرة مع تأكيد النفى بمن لمعنى : أن متعاطى السحر لا حظ له فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بل له الخسار والبوار ، وذهاب نور الوجه ، وغضب الله ، للساحر والمسحور له .

وإذا انتفى كل حظ من الخير ، ثبت الشر كله ؛ لأن الراحة من الشر خير ، وهى حالة الكفاف - وقد تمناها الفضلاء - أو دونه خشية من الله تعالى .

---

(١) البقرة : ١٠٢

قوله : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ وَ﴿ شَرَوا ﴾ بمعنى : باعوا - من الأضداد - بمعنى بذلوا . وهو مقابل قوله : ﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ . ومعنى بذل النفس : هو التسبب لها فى الخسار والبوار .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فى آخر الآية مقتضٍ لنفي العلم بطريق (لو) الامتناعية ؛ لأن لو حرف امتناع لوجود : أى يمتنع العلم بالخسران للنفس ، لذلك أهانوا أنفسهم ؛ لأنهم لا يعلمون . . مع أنه أثبت لهم العلم بالتأكيد فى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ أى أن علمهم لم ينفعهم ولم يعصمهم من الوقوع فى الكفر .

تحقيقًا لقول النبى ﷺ : « من أتى كاهناً أو عرافًا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد » .

والعلم المنفى عنهم هو : غير العلم المثبت لهم فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ ؛ إلا أن الذى علموه هو : أن مكتسب السحر ما له خلاق فى الآخرة ، والذى جهلوه هنا هو أن السحر شىء مذموم ، وفيه تجهيل لهم ؛ حيث علموا أن صاحبه لا خلاق له ، ولم يهتدوا إلى أن نفى (الخلاق) يستلزم الخسران ؛ إذ ما بعد الحق إلا الضلال . وهذا هو الوجه ؛ لأن لو كانوا يعلمون ذيل به قوله: ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ .

* والإمام الزمخشرى فى تفسيره ، والسكاكى فى « مفتاحه » ، يقولان فى نفى العلم النافع عن السحرة فى آخر الآية :

١ - المراد بنفى العلم . . أنهم لما كانوا فى علمهم كمن لا يعلم بعدم عملهم به . . نفى العلم عنهم ؛ لعدم الاعتداد به . . تهكمًا عليهم ، لأن علمهم كالجهل .

٢ - أو أن المعنى لو كانوا يعلمون ما يتبع السحر من العذاب فى الآخرة ، لابتعدوا عن ذلك كلية ، أى : كأن علمهم . . لا علم . . وإلا لما خالفوا .

٣ - أو أن الضمير فى (علموا) يرجع إلى الجن ، الذين يعلمون السحر ، وضميرى : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ . . راجع إلى الإنس الذين تعلموا السحر وباعوا به أنفسهم وخسروها . والله أعلم أ هـ .

* * *

obeikan.com

الملحق الرابع

الصواب فى قصة هاروت وماروت

لسماحة الأستاذ راشد عبد الله الفرحان (*)

فى هذا الملحق :

- النافع والضار هو الله تعالى بمشيئته .

- الملكان كانا رجلين من الإنس صالحين ، يعرفان خصائص الأشياء ، وطبائع النفوس ، وحيل المارقين .

- سليمان ، عليه السلام كان رسولاً هاديًا .

- لا يكفر بالقرآن الكريم إلا من فسد طبعه ، والسحر ، والخرافة تشيع مع الجهالة والغباء .

- أراذل اليهود ، وشياطين الإنس والجن يكذبون على الناس السذّج .

- من فسد طبعه ينأى عن الخير ، ويتبع الشر .

- العلماء المحققون قطعوا بأن قصة هاروت وماروت (الموضوعة) خرافية .

- تسللت بعض الأباطيل والخرافات والإسرائيليات (١) إلى تفاسيرنا ، فمتى ننقيها وننبذها ؟ يقول الأستاذ الفاضل :

(*) من كتابه : « تفسير مشكل القرآن » - ط ثالثة عام ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥ م ، طبعة ، ونشر : جمعية الدعوة الإسلامية ، جـ ١ .

(١) الأسباب التى من أجلها تسللت هذه الخزعبلات إلى شرح قرآننا - فى رأيى هى - لأن علماء المشرق فروا أمام غزو المغول إلى مصر . ولجأ علماء المسلمين من الأندلس (الفردوس المفقود) إلى مصر .. وكلهم تركوا كتبهم ومؤلفاتهم خلفهم هربًا من جحيم المغول ، والحروب الصليبية ، وابتدأ كل عالم يملى من علمه ، ويستعين =

● قصة هاروت وماروت :

قال الله تعالى : ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

لقد حشا بعض المفسرين كتبهم بروايات وقصص خرافية عجيبة ما ملخصه :

أنه لما كثرت المعاصي في الناس اسناء اللائكة ، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم .

فقال لهم الله : لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم ، قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا ، فقيل لهم : اختاروا منكم ملكين ، فاختاروا (هاروت وماروت) فأهبطا إلى الأرض ، وركّبت فيهما الشهوة ، فصارا يحكمان بين الناس بالحق ، فأعجبتهما امرأة فراوداها عن نفسها ، فأبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها . . وأنها سقتهما الخمر فواقعاها ، ومر عليهما رجل فقتلاه .

وبعد أن أفاقا عرفًا ما قد وقعا فيه من الخطيئة ، وأرادا أن يصعدا إلى السماء

= بحافظته التي (تخون أحيانًا) ، وينظر في كتب بني إسرائيل ، وفيها الغث ، وغيره ، فحين اقتبسوا منها مع ما سبق من أسباب . . دخل الخلط في بعض ما كتبوه . . وآن لتفاسيرنا أن تنقى من كل ذلك حتى يعود لها صفاؤها ونقاؤها . . وما ذلك على المسلمين بعسير ، وفاء لتراثهم ، وحفظًا لإسلامهم ، ورعاية لأبنائهم وأحفادهم ، وتقربًا إلى ربهم ، من خير أمة أخرجت للناس .

(١) البقرة : ١٠٠ - ١٠٢

فلم يستطيعا ، فجعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لمن فى الأرض ، وخيراً بين عذاب الدنيا أو الآخرة : فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلا ببابل ، فهما بها يعذبان معلقين بأرجلهما ، وأما المرأة فمسخت ؛ فصارت الكوكب المعروف بالزهرة.

* رأى العلماء المحققين :

قال الدكتور الشيخ أبو شهبة [1] .

ولا ينبغى أن يشك مسلم عاقل فضلاً عن طالب حديث ، فى أن هذا موضوع على النبى ﷺ مهما بلغت أسانيده من الثبوت ، فما بالك إذا كانت أسانيدها واهية ، ساقطة ، ولا تخلو من وضّاع ، أو ضعيف ، أو مجهول ؟ ونص على وضعه أئمة الحديث ، وقد حكم بوضع هذه القصة أبو الفرج ابن الجوزى [2] .

ونص الشهاب العراقى ، على أن : من اعتقد فى هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما ، فهو كافر بالله العظيم [3] .

وقال الإمام القاضى عياض فى كتابه (الشفاء) :

وما ذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون فى قصة هاروت وماروت ، لم يرد فيه شىء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ : وكذلك حكم بوضع المرفوع من هذه القصة : الحافظ عماد الدين ابن كثير وأما ما ليس بمرفوع إلى النبى ﷺ فبين أن منشأه : روايات إسرائيلية أخذت من كعب الأحبار [4] ،

---

(١) كتابه الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص ٢٢٧

(٢) اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة جـ١ ص ٨٢

(٣) روح المعانى جـ١ ص ٣٤١

(٤) فضيلة الشيخ يوسف الدجوى ، رحمه الله - من كبار العلماء - ذكر فيما تركه من آثار (مفاهيم إسلامية ، مقالات وفتاوى) طبع الأزهر سنة ١٤٠٢هـ أن كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام ، هم من أهل الكتاب : أسلموا وحسن إسلامهم ، وروى عنهم الصحابة والتابعون لأنهم ثقة . . ولعل بعض ما ذكروه ، ذكروه على أنه من الإسرائيليات . . ونقل غيرهم عنهم بدون تحقيق ومن غير سند فالتبعة على من نقل عنهم ، لا عليهم . . راجع ما كتبه الشيخ الدجوى فى ص ٤٤٤ من الجزء الثانى . والمحقق .

وغيره ، ألصقها الزنادقة أهل الكتاب بالإسلام ، قال رحمه الله فى تفسيره ، بعد أن تكلم على الأحاديث الواردة فى هاروت وماروت ، وأن روايات الرفع غريبة جدًا .

(وأقرب ما يكون فى ذلك : أنه من رواية عبد الله بن عمر ، عن كعب الأحبار ، ورفع مثل هذه الاسرائيليات إلى النبى كذب ، واختلاق ، ألصقته زنادقة أهل الكتاب ، زورًا وبهتانًا) .

* ويقول الشيخ شلتوت فى كتابه (إلى القرآن الكريم) من مجمل الآيات:

(أخذ الله يطمئن رسوله بأن ما أنزل عليه من الآيات الواضحة ، لا يكفر بها إلا من فسد طبعه ، وزاغ عن فطرته ، وكلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم نبذوا هداية الله قديمها وحديثها ، وأخذوا يصرفون الناس عن النظر فى الحقائق بالأوهام والأكاذيب .

كانوا يخترعون ، أن ملك سليمان أساسه السحر والشعوذة ، وأن الملكين عندهما أشد أنواع السحر التى تفرق بين المرء وزوجه ، ولمثل هذه الأحاديث شيوع فشاعت بين الناس ، حتى تأثروا بها واتخذوها ديدنهم فى الحياة ، وانشغلوا بها حتى صرفتهم عن كل فضيلة ، وقد بين الله الحق فيما اختلقوا على سليمان وعلى الملكين .

وقرر أن سليمان ما كان ساحرًا ، وما كفر بنعمة ربه ، إنما كان هاديًا ورسولاً .

وأن الملكين : الرجلين الصالحين ، ما كانا بمفسدين فى الأرض ولا بمدلسين على الناس ، إنما كانا ناصحين أمينين .

ولكن المفسدين أنكروا على سليمان النبوة والملك الإلهى ،كما أنكروا فضل الله على الرجلين الصالحين ، فى معرفة خصائص الأشياء وأسرار النفوس ، وزعموا أن ما عندهما وما عند سليمان : سحر وشعوذة [1] .

* *

---

(١) حتى الآن استشهد أستاذنا راشد الفرحان بستة علماء من خيرة علمائنا ، وارتأى رأيهم ، فيما جاء فى اختياره بعدئذ .

● التفسير الصحيح :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ ، أى ، واتبع اليهود ما كذبت به الشياطين على عهد سليمان من السحر ، ونسبوه إليه ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ ، أى : لم يخرج عن طاعة الله ، ويتعاطى السحر ، وما كفر بنعمة ربه ، إنما كان رسولاً يعلم الناس الحق والهدى ، وإنما الذين كفروا بنعمة الله هم شياطين الإنس والجن ، الذين ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ مخلوطًا ومدسوسًا بما يأخذونه عن الرجلين الصالحين من العلم ؛ ليدلسوا على الناس به ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ .

والواو تدل على أن الذى يعلم الناس ما يضرهم ولا ينفعهم هم الشياطين ، أى : أن الشياطين يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين الرجلين الصالحين الذين اشتهرا لدى الناس بصلاحهما ، حتى أطلقوا عليهما ملكين .

* ولا دليل يعين أن الذى أنزل على الملكين سحر ؛ إذ السحر موجود لدى الشياطين ، والإنزال عليهما يخرجهما من كونهما ملكين ، فالتوراة أنزلت على اليهود ، والإنجيل على النصارى ، والقرآن أنزل على المسلمين ، فكلمة : (نزل) لا يختص بها الأنبياء ، بل هى عامة ، كما قال الله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ (٢) ، وقال فى سورة الروم : ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ (٣) .

● الملكان رجلان لعدة أسباب :

١ - سكناهما بابل إذ هى بلد بالعراق ، والملائكة لا قرار لهم فى مكان

---

(١) الشعراء : ١٩٨ (٢) النساء : ١٥٣ (٣) الروم : ٤٩

معين مع الإنس يعيشون معهم ، فذلك من علم الله الذى اختص به ، ويؤيد ذلك قراءة ملِكين بكسر اللام ، وهى مروية عن ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، رضى الله عنهم .

٢ - كثيرًا ما يذكر القرآن ما اصطلح عليه الناس من إطلاقات ، كما فى قصة يوسف - عليه السلام - حيث أطلق عليه ملك كريم : ﴿ ما هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) ويوسف بشر .

٣ - تصدى الملائكة لتعليم الناس الشر والسحر ، الذى برأ الله منه رسله ، يتنافى مع حقيقة الملائكة الذين خلقوا للخير والهداية .

وأما الشر والسحر والكفر - فمن دأب الشياطين وأبناء إبليس ، بل إن الناس بقدر ما عرفوا من عنصر الخير بالملائكة صاروا يصفون الإنسان الطاهر - فيقولون : فلان ملاك (٢) .

وبالرجوع إلى الآيات يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ، أى : أن الرجلين الصالحين .. كانا يحذران الناس الذين يعلمونهم العلم يحذرونهم من الشر ، فيقولان : إنما نحن أى بنى الإنسان ، يفتن بعضنا بعضًا ، ويزين بعضنا لبعض السوء ، ومن ذلك الميل إلى السحر ، فلا تكفر ؛ ولذلك اقتضى التحذير منه ، والمعنىُ بذلك هو : الشيطان الإنسى أو الجنى ، الذى خلط الخير بالشر ، فمزج العلم النافع بالسحر الضار ، ففتن الناس به وأضلهم .

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ أى اليهود الذين اتبعوا الشياطين ﴿ مِنْهُمَا ﴾ الضمير عائد على الشياطين وما أنزل على الملكين ، أى من كلا الأمرين ، من السحر والعلم الذى أنزل على الملكين : ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ .

---

(١) يوسف : ٣١ (٢) وكما وصف يوسف عليه السلام فى الآية السابقة .

أو يتعلمون من الملكين وحدهما علمًا يستعملونه بالشر دون الخير . . ومن ذلك التفرقة بين المرء وزوجه .

وقد تكون التفرقة بوسائل شتى ، ومنها : البيانية ، كقول الرسول ﷺ : « إنَّ من البيان لسحرًا » .

﴿ وَمَا هُمْ ﴾ دليل آخر على الجمع ، وأن الضر يأتى من جهة الشياطين والسحرة ﴿ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ بإرادته وعلمه الواسع .

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ ﴾ ، أى : أنّ الذين اتبعوا الشياطين بأخذهم الشر وترك الخير ، وسعيهم بضر الناس ، وإفساد ذات البين إنما يتعلمون ما يضرهم ولا يستفيدون مما ينفعهم [1] .

* * *

(١) فالسحر والخرافة ، والدجل والشعوذة . . وهم وخيال وخبال ، وقبح وكفر من الساحر والمسحور .

obeikan.com

الملحق الخامس

هداية الله تعالى فى الدلالة والمعونة

obeikan.com

* الذين يلتمسون لأنفسهم عذراً فى كفرهم وضلالهم - عليهم أن يعرفوا معنيين لهداية الله - هما : الدلالة والمعونة .

وسيظل العصاة الضالون يبررون ارتكابهم المعاصى وسيرهم فى طريق الضلال ، بأن الله أراد لهم أن يكونوا كذلك ، ومن ثم يعترضون على تعذيب الله لهم فى الآخرة . . وهم يريدون بذلك أن يبرروا غواية الشيطان لهم ، وخضوعهم لإغراءاته ، فيرتكبوا من الحرام ما يرتكبون ، ويقترفوا من الآثام ما يقترفون ، زاعمين أن الله قضى الخير على من يريد ، وقضى الشر على من يريد ، والناس لا إرادة لهم فيما يفعلون من خير وشر .

كانت هذه هى مقدمة حديث إمام الدعاة إلى الله ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، وهو يصدر حكاية خواطره الإيمانية عن قول الله تعالى :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّه يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] يقول :

(إننا نجد من يقول : إن الله حين يريد لإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله ، وما ذنب الكافر إذن ؟ .

ثم يجيب فضيلته عن هذا السؤال بقوله :

إن فى الآية فعل الهداية وهو « يهديه » ، والهداية لها معنيان :

المعنى الأول : « الدلالة » وهى أمر وارد وواجب حتى للكافر ، فقد دل الله طريق الهداية إلى الخير للناس أجمعين ودعاهم إلى سلوكه ، فمنهم من سلك هذا الطريق وآمن ، ومنهم من ضل الطريق وامتنع عن السير فيه فكفر .

---

(١) الأنعام : ١٢٥

فأما الذى آمن فإيمانه بإرادته ، والذى كفر فكفره بإرادته ، ولا يجوز على الله سبحانه وتعالى أن يسوى بين المؤمن والكافر فى الإعانة على الخير ، وهذه هى هداية من نوع آخر غير هداية الدلالة .

وهنا يمكن أن تقول أن المعنى الآخر للهداية هو « المعونة » .

ومعونة الله على الخير لا تكون إلا للذى آمن ، وهذه المعونة تتمثل فى : أن يخفف الله عنه أعباء التكاليف ، وييسرها له ، ويجعله يعشق كل الأوامر ، ويعشق البُعد عن كل النواهى بل ويبغضها أشد البغض .

فالهداية فى أول الأمر بمعنى الدلالة : متاحة للمؤمن والكافر ، ومتاحة للطائع والعاصى .

ولكن الهداية بمعنى المعونة : لا تكون إلا للمؤمن والطائع .

وإذن فلا حجة لقول الكافر بأن هذه هى إرادة الله ، فلماذا يعذبه على شىء قضاه عليه ؟ .

والمؤمن بطبعه يقبل على الطاعة بمحبة وعشق ، ولذلك يقول بعض الصالحين :

« اللهم إنى أخاف ألا تثيبنى على طاعة لأنى أصبحت أشتهيها » .

كأنه عشق الطاعة بحيث لم يجد فيها مشقة أو تكليفاً ، لذلك فهو خائف ، وكأنه قد فهم أنه لا بد أن توجد مشقة .

ومثل هذا الإنسان الصالح قد فقد الإحساس بمشقة التكليف لأنه عشقه ، فآلف العبادة وألفته ، وعشقها وعشقته ، وحدث الإنجذاب بينه وبين الطاعة حتى أنه يجد راحته وطمأنينة قلبه فيها .

وذلك مثل أخذه عشاق التكاليف من رسول الله ﷺ ، فإنه كان حينما يأتى وقت الصلاة يقول لبلال بن رباح وهو مؤذن الرسول : « أرحنا بها يا بلال » .

وهذا غير ما يقوله بعض من يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم . هيا نصلى لنزيحها من على ظهورنا : وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق .

أما الذين ألفوا الراحة فى الصلاة حينما يشتد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم ، يقول الواحد منهم : ما دامت الصلاة تريح القلب ، فلأذهب إليها وألقى ربى زائداً على أمر تكليفه لى متقرباً إليه بالنوافل ، فلذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة ، ومعنى حزبه أن الأسباب البشرية لا تنهض به ، فيقوم إلى الصلاة ، وهذا أمر منطقى .

ونقول ولله المثل الأعلى أن الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه ، فما بالنا ونحن رجال مكلفون إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فلمن نلجأ ؟

إننا نلجأ لربنا . فلقد كان ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة .

ثم يخاطب الإمام الشيخ الشعراوى تلاميذه ومريديه فى مجلسه فيقول :

إذن فمشقة التكليف شىء يدل على أنكم ذقتم حلاوة الطاعة ، وقد يجوز أن يكون التكليف شاقاً عليكم لأنه يخرجكم أولاً عما ألفتم من الاعتياد ، فعندما يأتيكم أمر فيه مشقة تقولون هذه المشقة إنما يريد الله بها حسن الجزاء لنا ، وإذا ما عشقتم الصلاة صارت حبا لكم .

والإنسان مطالب بأن يحارب نفسه فى شهواتها ، ولكن رسول الله ﷺ ، وضع لنا المثل ، فقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعاً لما جئت به » . أى يصبح ما يشتهيه موافقاً لمنهج الله ، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعم العبد السوى .

والهداية كما عرفنا : منها الهداية بمعنى الدلالة ، ومنها الهداية بمعنى المعونة ، وهذه الأخيرة إذا ما اقتنع الإنسان بها وآمن بالله ، فهو سبحانه يخفف عليه أمور التكليف ، ويجعله عاشقاً لها .

ولذلك يقول أهل الصلاح :

ربنا قد فرض علينا خمس صلوات ، فسبحانه يستحق منا الوقوف بين يديه أكثر من خمس مرات .

وفرض علينا ربنا نصاب الزكاة ، وهو ربع العشر من المال ، وسبحانه يستحق منا أكثر من ذلك ، لأنه واهب كل شيء ، وهذا عشق التكليف ، وهذا هو معنى قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ (١) .

أى يدله سبحانه كما دل كل العباد إلى المنهج ، لكن الذى اقتنع بالدلالة وآمن ، تسهل عليه تبعات التكليف مصداقاً لقول الله تعالى :

﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوا هُدًى ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًا ﴾ (٢) .

فهذه هداية المعونة ، وفيه فرق هنا بين الإسلام والإيمان ، لأن الإيمان لا يحتاج فقط إلى الاعتقاد ، إنما هو حمل النفس على مطلوبات الإيمان ، ولذلك نجد كفار قريش رفضوا أن يقولوا : « لا إله إلا الله » لأنهم علموا أنها ليست مجرد كلمة تقال ، ولكن لها مطلوبات تتعب فى التكاليف الناتجة عنها بـ « افعل ولا تفعل » ، فالتكليف يقول : « افعل » فى شيء هو صعب على المكلف ، ويقول : « لا تفعل » فى شيء من الصعب أن يتركه المكلف » .

ويضيف الشيخ الجليل الشعراوى :

أن الله سبحانه وتعالى يشرح صدر المؤمن للإسلام ، بعد أن علم أنه قد اعتقد شريعة التوحيد ، ورضيها واطمأن بها ، فيأتى إلى فهم التكاليف ، لأن صحيح الإسلام يقتضى الانقياد لأمور التكاليف ، فمن أخذ الهداية الأولى

---

(١) الأنعام : ١٢٥ (٢) مريم : ٧٦

وآمن بربه يخفف الله عنه تبعات العمل ويشرح صدره للإسلام ، وشرح الصدر قد يكون جزاء ، فالله سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (١) .

والمقصود بهذا القول هو رسول الله ﷺ ، فقد جازاه ربه بذلك ، لأنه أدى ما عليه وصمد ، كأن الله يريد بالإيمان من المؤمن أن يقبل على الله ، وحينما يقبل على الله يبحث ليتعرف على المراد والمطلوب منه ، فيعلم أنها التكاليف . . فإذا رأى الله من العبد الإستعداد المتميز بقبول التكاليف : فإنه يخففها عليه لا بالتقليل منها ولكن بأن يجعله يشتهيها .

وقد يلزم العبد نفسه أشياء فوق ما كلفه الله ليكون من أهل المودة ومن أهل التجليات ، ويلتفت لنفسه ، وهو يقول : لقد كلفنى الله بالقليل وسبحانه يستحق الكثير ، فيزيد من طاعته ويجد أمامه دائماً الحديث القدسى الذى يقول الله فيه :

« من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » .

وإذن فمعنى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » : أى يجعل الأمور التى يظن بعض الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ويقبل عليها بشوق وخشوع .

ولذلك فالله سبحانه وتعالى يترك فى خلقه مثلاً للناس : فنجد المال عزيزاً على النفس حريصة عليه ، لأنه إن كان المال قد جاء بطريق شرعه الله وأحله فهو يأتى بتعب وكد ، لذلك يحرص عليه الإنسان ، فيجعل الله الحنان فى قلب العبد من أجل البذل والعطاء .

---

(١) الشرح : ١

فنجد المؤمن يعطى للسائل ، لأن السائل هو الجسر الذى يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله ، فيقول العبد المؤمن للسائل : مرحباً بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

ولذلك عندما جاء أحد المسلمين إلى الإمام على - رضى الله عنه - وكرم وجهه ، وقال له : « أنا أريد أن أعرف أأنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة » ؟ .

فأجابه الإمام على بمقياس للإيمان فى نفس كل مؤمن وقال له : إن جاءك من يطلب منك وجاءك من يعطيك ، فإن كنت تهش لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا ، وإن كنت تهش لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة » .

وينتقل الشيخ الجليل الشعراوى إلى الجانب الآخر من الآية الكريمة التى نعيش بين يديها وهو المتمثل فى قول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

ثم يطرح فضيلته سؤالاً يقول : وهل هذا تجن من الله على خلقه ؟ .

ويجيب فضيلته بقوله :

لا ، لأنه ما دام دعاهم للإيمان فآمن بعضهم وصاروا أهلاً للتجليات ، وكفر بعضهم فلم يؤمنوا ، فصاروا أهلاً للحرج وضيق الصدر ، فليس فى الأمر تجن .

ومعنى (الضيق) : أن الشيء يكون حجمه أقل مما يؤدى به مهمته ، فحين يقال : ضاق البيت بى وبعيالى ، فهذا يعنى أن الرجل وزوجه فى البداية عاشا فى غرفتين ، وكان البيت متسعًا ، ثم أنجبا عيالاً كثيرة ، فضاق بهم البيت .

وهكذا نعلم أنه لم يطرأ شيء على الجدران ومساحة البيت ، لكن حين زاد عدد الأفراد شعر رب الأسرة بضيق المنزل .

---

(١) الأنعام : ١٢٥

والانتقال إلى (الصدر) وهو محمل التنفس والرئة ، فبه تأخذ الأكسجين وتطرد ثانى أكسيد الكربون ، وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة فى التنفس ، كأن حيز الصدر صار ضيقًا ، فلا يدخل الهواء الكافى لتشغيل الرئتين ، ويحاول الإنسان أن يعوض بالحركة ما فاته فيتردد نفسه متتابعاً لأن الحيز قد ضاق .

(والحرج) معناه : الحجز عن الفعل ، كأن تقول : حرجت على فلان أن يفعل كذا ، أى ضيقت عليه ومنعته أن يؤدى هذا العمل « كأنما يصعد فى السماء » ، ويصعد بتشديد الصاد والعين يعنى مشقة الحركة التى يفيدها تضعيف الفعل ، وذلك بسبب مشقات التكليف ، لأنه لم يدخلها بعشق ، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن ، فهو الذى يستقبل هذه التكاليف بشرح صدر ، وإنبساط نفس ، وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل ، والذى يسهل مشقة الأعمال حلاوة تصور الجزاء عليها ، فالذى يجتهد فى دروسه إنما يستحضر فى ذهنه لذة النجاح فى نفسه مستقبلاً وفى أهله . . أما الذى لا يستحضر نتائج ما يفعل فيكون العمل شاقاً عليه .

ويضيف شيخنا الشعراوى قوله : أن التعبير (بالسماء) فى قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ يفيد مشقة الأمر على الكافر ، فصعود السلم يأتى بمشقة على الجسم ، ولكنها قد تكون محتملة مع أنها تصيب الإنسان بالجهد ، ولنا أن نتصور مشقة الجهد على الكافر بالتصعيد فى السماء .

ويأتى ختام الآية الكريمة التى نعيش بين يديها قوله تعالى :

﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

(والرجس) هو العذاب ، وهذا العذاب إنما يأتيهم بسبب كفرهم ، وعدم إقبالهم على التكليف .

ويختتم شيخنا الشعراوى لقاءه معنا اليوم بقوله : إنه مع هذا البيان القرآنى لا معنى لقول الكافر : إن كفره بإرادة الله ، فلماذا يعذبه الله ؟ فقد دله الله على الطريق ، ولكنه لم يسلكه ، واختار طريق الكفر والضلال .

الدكتور / توفيق محمد شاهين

* * *